الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عمار ثليجي-الأغواط-

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة الأدب العربي

صورة الثورة الجزائرية المكتوبة باللغة الأجنبية

رواية الانطباع الأخير لمالك حداد

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في الاداب واللغات تخصص: أدب حديث ومعاصر

الشعبة: أدبيات

تخصص: أدب حديث ومعاصر

اعداد الطالبة:

- فاطمة الزهراء الحري

اشراف الدكتور:

* لخضر الذيب

لجنة المناقشة:

د.محمد بيتر	رئيسا
د.علي لخذاري	مناقشا
أ.د. لخضر الذيب	مشرفا ومقررا

السنة الجامعية 2024/2023

بسم الله الرحمن الرحيم
١٤٣٨

شكر وعرفان

اللهم لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضا الحمد لله الذي يسر لنا طريق العلم ووفقنا إلى إنجاز هذا العمل.

نتوجه بالشكر الجزيل

الى الاستاذ المشرف الدكتور لخضر الذيب

والشكر إلى كل اساتذة الكلية

وكل من ساعدنا في إنجاز هذا العمل

اهداء

الحمد لله حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرض

"وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب"

لكل بداية نهاية ولكل جهد طيب ثمرة طيبة جميل أن يضع الانسان هدفا في حياته والأجمل أن يثمر هذا الهدف طموحا

أهدي عملي هذا إلى التي سهرت من أجلي الليالي وأنارت لي دربي وهي رمز العطاء والوفاء وإلى من علمتني وضحت من أجلي سعادتي وايصالي إلى ما أطمح إليه إلى أمي العزيزة.

أهدي ثمرة جهدي إلى أبي والدي سندي قرة عيني.

أهدي عملي إلى كل أخواتي الذين هم أساس فرحي ونجاحي.

كما أهدي جهدي إلى الأستاذ المشرف لخضر الذيب وإلى كل أساتذة الكلية.

وإلى كل الزملاء.

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المحتويات	الصفحة
إهداء	/
شكر وتقدير	/
فهرس المحتويات	أ
مقدمة	ج
المدخل	3
الفصل الأول: الثورة الجزائرية في كتابات مالك حداد	
1- إشكالية الهوية والانتماء في كتابات مالك حداد.	16
2- تأثير الثورة على كتابات مالك حداد.	26
3- صورة الجزائر في كتابات مالك حداد	37
الفصل الثاني: الثورة الجزائرية في رواية الانطباع الأخير	
1- مظاهر الاستعمار في الرواية	48
2- مظاهر المقاومة في رواية الانطباع	54
3- تمظهرات صورة الأنا والآخر في الرواية	58
خاتمة الدراسة	71
قائمة المراجع	74

مقدمـــة

مقدمة:

تزخر مكتبة الأدب الجزائري بالعديد من الدراسات الهادفة إلى الإحاطة بشتى أبعاد النص الأدبي الروائي، سواء أكان مكتوبا باللغة العربية أم مكتوبا باللغة الفرنسية، والكشف عن آلياته الفاعلة، قصد الوصول إلى فهم أعماق طبيعة العمل الأدبي و خصائصه التي تميزه عن غيره، علما أن الأدب الجزائري كانت بداياته في ظل السيطرة الاستعمارية التي فرضت اللغة الفرنسية في المدارس، فكانت نتيجة ظهور جيل من الكتّاب الذين استخدموها في إبداعاتهم، فانجر عن ذلك ظهور الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، ومن ثمة طرحت إشكالية هويتها وانتمائها بسبب لغة كتابتها، غير أنها حافظت في أعماقها على أصالة وروح المجتمع الجزائري، فسجلت بذلك حضورا مميزا نظرا لأهمية الموضوعات التي عالجتها، حيث تجاوزت اللغة الفرنسية التي كتبت بها، فلم تشكل عائقا أمام هؤلاء الكتاب الذين وجدوا أنفسهم في ظروف تاريخية أرغمتهم على التعبير بلغة الآخر– لغة المستعمر– وأبدعوا في كتابتهم وعن انتمائهم الجزائري وهويتهم الضائعة والبحث عن كل ما يربطهم بالوطن، واتخذوا من الثورة التحريرية ومحاربة الاستعمار بلسانه موضوعا رئيسيا تواتر في أغلب الروايات، فتحولت تلك الأعمال إلى مرجعيات تاريخية لفتت انتباه القراء في جميع أنحاء العالم.

ومن هنا نطرح تساؤولات الآتية .

الاشكالية :

كيف تم تمثيل الثورة الجزائرية في كتابات مالك حداد ؟

وماهي مظاهر الإستعمار والمقاومةفي رواية الإنطباع ؟

وكيف تجسدت مظاهر الأنا والآخر في رواية الإنطباع ؟

أهمية الموضوع :

تكمن أهمية هذه الدراسة أنّ مكتبة الأدب الجزائري وتنوع دراستها، خاصة فيما يتعلق بالرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية. هذا المجال الأدبي لا يقتصر فقط على الأبعاد الفنية والأدبية للنصوص، بل يتعمق في استكشاف هوية الكتاب وتعايشهم مع الواقع التاريخي والسياسي الذي شكّل الخلفية لكتاباتهم.

تحت تأثير الاستعمار الفرنسي والسياسات التعليمية التي فرضت اللغة الفرنسية، نشأ جيل من الكتاب الجزائريين الذين اختاروا استخدام هذه اللغة للتعبير عن تجاربهم ومعاناتهم ونضالهم من أجل الهوية والانتماء الجزائري. رغم استخدامهم للغة المستعمر، إلا أنهم نجحوا في الابتكار والتعبير عن الروح الجزائرية الأصيلة والمجتمعية التي تميزت بها أعمالهم.

أسباب اختيار الموضوع:

اختيار موضوع دراسة الأدب الجزائري، خاصة الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، يعود إلى عدةأسباب:

التراث الأدبي الغني :مكتبة الأدب الجزائري تزخر بأعمال متميزة تعبر عن تجارب فريدة ومتنوعة. اختيار هذا الموضوع يأتي لاستكشاف هذا التراث الغني والتعرف على أبرز الأصوات الأدبية التي نشأت في سياقات تاريخية معقدة.

اللغة والهوية :الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية تثير تساؤلات مهمة حول الهوية الثقافية واللغوية للكتّاب الجزائريين. كيف تمكنوا من الابتكار باللغة المستعمرة للتعبير عن هويتهم وتجاربهم؟

المقاومة والنضال :تعتبر الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية وسيلة للتعبير عن المقاومة والنضال ضد الاستعمار. هذا الموضوع يعكس الروح النضالية والتحررية التي كانت تميز حقبة الثورة التحريرية في الجزائر.

باختيار هذا الموضوع، يمكن للدراسات أن تساهم في إثراء النقاش الأدبي والثقافي حول التأثيرات التاريخية والسياسية على الأدب، بالإضافة إلى فهم القضايا الهوياتية واللغوية التي تعترض الكتاب في بيئات استعمارية.

منهج الدراسة:

إعتمدت على منهج الوصفي تحليلي لإنجاز مذكرتنا وقمت بإختيار عنوان هذه المذكرة لأسباب التالية بعد مشاورة الأستاذ المشرف ورغبتي في التعرف على أصول الرواية الجزائرية مكتوبة باللغة الأجنبية ورواية الإنطباع الاخير لمالك حداد إحتلت مكانة مرموقة ضمن الأدب الجزئري المكتوب باللغة الفرنسية بإعتبارها من أهم الروايات التي عالجت مختلف القضايا المتعلقة بالثورة.

هيكل الدراسة:

إعتمدت على خطة بحث تتكون من مدخل وفصلين مقدمة عرفنا فيها الموضوع وإفتتحت المدخل بشرح بعض المصطلحات أصول جنس الأدبي جزائري والفرنسي أما الفصل الأول فعنوته بالرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الأجنبية ويتكون من أربع مباحث مبحث الأول الثورة الجزائرية في كتابات مالك حداد المبحث الثاني إشكالية الهوية والإنتماء مبحث ثالث تناولت فيه تأثير الثورة على كتابات لمالك حداد المبحث الرابع صورة الجزائر في كتابات مالك حداد .

أما الفصل الثاني عبارة عن دراسة تطبيقية في رواية الإنطباع الأخير لمالك حداد ثم خاتمة لخصنا فيها جميع ماورد .

و أشكر الأستاذ المشرف الدكتور لخضر ذيب الذي طالما كان سندا ومرجعا لنا ولم يبخل علينا بمعلوماته القيمة حتى اتممنا هذا البحث.

المدخل

المدخل:

إن محاولة البحث عن الأدب بالجزائر الحديث المكتوب باللغة الفرنسية المستمد من تراثنا الأدبي العربي عامة الرواية بصفة خاصة باعتبارها أولا وقبل كل شيء النشاط الفني الفكري والاجتماعي تعكس روح العصر الذي عاش وترعرع فيه، ألنه كائن حي يتفاعل مع العصر الذي عاش يعيش فيه ويستجيب لمتطلباته، فتغدوا بذلك المرجع الأكثر دلالة واتساعا لتتبع مسيرة الأديب وآماله وآلامه ومعارفه وطموحاته وسط واقع اجتماعي يضمر في جوهره التوق إلى الحرية والتقدم حيث "نجد الواقع والتاريخ والثورة من أهم مقومات الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وغذاءه التي يتغذى به، ولكن من مؤثرات الاستعمار على الجزائريين ترسيخ اللغة الفرنسية في أذهانهم وهذا نتيجة للتجهيل والتفاعل وهذا ما جعل الرواية الجزائرية صنفين : الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية والرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وهذا لا ينكر على الرواية هويتها الجزائرية وذلك بسبب الروح التي كتبت بها أدبا جزائريا المجال للطعن فيه[1].

إنّ انتشار اللغة الفرنسية في الجزائر ونشوء جيل من الكتاب الجزائريين لا يعرفون اللغة العربية وال يمكنهم التعبير عن مشاعرهم إلا بلغة المعمر أثار معركة أدبية حول جنسية هذا الأدب هل يكون أدبا جزائريا؟ أم يكون أدبا فرنسيا؟ لذلك نجد أنفسنا أمام اشكالية مفادها هوية هذا الجنس الأدبي هل هو جزائري الأصل أم فرنسي؟ إنّ اللغة التي كتب بها هذا الأدب هي السبب الرئيس الذي أوهم

[1] عز الدين المناصرة: الهوية والتعددية اللغوية قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن، ط 1 دار مجدولاي للنشر والتوزيع عمان الأردن، 2004، ص 352.

البعض بخصوص هويته باعتباره فرنسي الأصل فأدى هذا الوهم إلى الخلط بين مجموعة من الروائيين الجزائريين ونظرائهم الأوروبيين من مواليد الجزائر مثل ألبير كامي وايزابيل ابرهادرت، فافرورو بليه وغابريال أوديسيو فقد كانت الجزائر بالنسبة لهم المدينة ذات الطبيعة الخالبة والشمس المشرقة حيث يمكن لهم قضاء عطلتهم فيها، كما جعلوا من الثورة الجزائرية كمرجع أساس موضوعاتهم لكن يبقى الاختلاف بينهم شاسع" فاستعمال لغة مشتركة وهي الفرنسية لم يوجد وحدة تتماثل بين الكتاب الجزائريين والكتاب الفرنسيين ولا يكمن هذا الاختلاف في الأساسات الخلفية التعليمية التي تعتبر متماثلة غالبا بالنسبة لكال الفئتين بل يرجع لعوامل جغرافية واجتماعية وتاريخية تخضع لها كل منهما، فالجزائريون هم الثمرة المباشرة لأرضهم فقد جاءوا من أعماق التاريخ المحلي يحملون ماضيا غنيا بالتقاليد ...فهم مرتبطون بالأمة الجزائرية في حين أن الفئة الأخرى متعلقة بالأرض فقط[1] فالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية يواجه مشكلة، ألا وهي مشكلة التعبير التي هي من وجهة نظرنا ذات وجهين ، فهيمن جهة قومية ومن جهة أخرى فنية: هي قومية ألننا نواجهها على المستوى الوطني، إذ أن كل مواطن يتساءل بينه وبين نفسه بأي لغة يجب أن يكتب هذا الأدب؟ هل يكتب بلغة الشعب التي كانت ولازالت وستبقى دائما لغة الضاد؟ أم يكتب بلغة الغرب أو الأجانب (لغة دخيلة) فرضتها علينا الظروف الاستعمارية فلم تؤثر هذه الأخيرة على الحياة الاجتماعية فحسب بل توغلت وانتشرت على المستوى الفكري مما أدى إلى خلق ظاهرة بروز كتاب جزائريين يكتبون عن

[1] عز الدين المناصرة: نفس المرجع السابق، ص 352.

مشكلات وطنهم بلغة دخيلة (لغة المستعمر[1] " تميز الأدب الجزائري الحديث عن بقية آداب اللغة العربية في العالم العربي بخاصية منفردة قلما نجدها، تجتمع في آداب العروبة قديما وحديثا ويتمثل ذلك التمايز في جملة من الخصائص المركبة معقدة انبتتها ضرورة تاريخية لا مناص منها، تدخلت في تشكيل الأدب الجزائري على مر العصور ثالثة عناصر هي : العنصر المحلي، والعنصر العربي، والعنصر اللاتيني الفرنسي...،والتقت العناصر الثالثة: لقاء الصراع والتفاعل[2] والاندماج وأثمرت في النهاية أدب جزائريا "هكذا برزت نخبة من الأدباء تعلمت في المدارس الفرنسية التي أدركت مبكرا أنها ليست فرنسية وأن فرنسا ما هي إلا استعمار ينبغي قهره والتخلص منه" حيث نجد المؤرخ والباحث جان ديجو يرجع أول نص أدبي كتبه جزائري باللغة الفرنسية إلى سنة 1891 وهو عبارة عن قصة بعنوان "انتقام الشيخ" مستقاة حسب ما يذكر ديجو من التقاليد الاجتماعية الجزائرية كتبها محمد بن رحال ونشرتها المجلة الجزائرية التونسية الأدبية والفنية.[3]

فاذا سلمنا بهذا التاريخ على أنه بداية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية الأمر الذي لا ينكره بعض الأدباء والباحثين ولكنهم يتجاهلونه في الوقت نفسه كما ينكرون كل ذلك الأدب الذي كتبه الجزائريون بالفرنسية في فترة ما بين الحربين "وذلك بسبب طول المدة التي تفصل بين بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر وبداية ظهور هذا الأدب...والحقيقة أن هناك عوامل عديدة أخرت ظهور هذا

[1] وليد عثماني: شعرية الفضاء وغواية الصحراء في الرواية الجزائرية، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والادب الجزائري، ع 10، جامعة بسكرة الجزائر، 2014، ص 251.

[2] انيسة بركات درار: نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985، ص 293

[3] احمد منور: مس حر احمد رضا حوحو: دراسة أدبية تحليلية مقارنة، بحث الادب العربي، 1989 ، ص 39.

الأدب أولهما سياسة العدوان التي انتهجها الاستعمار، مما جعل العلاقة بينهما علاقة توتر دائم والعامل الثاني يتمثل في سياسة[1] التعليم التي طبقها هذا المحتل أو على الأصح سياسة التجهيل التي طبقوها ".ولهذا لجأ الكتاب الجزائريون إلى الكتابة بلغة غير لغتهم الأم من جهة ومن جهة أخرى بسبب التلاقح الفكري أو التأثير الثقافي والحضاري، وكذلك سياسة التجهيل التي طبقها المحتلون، إن التعريف بثقافة الدولة المستعمرة ومحاولة احيائها حتى لا يقضي عليها المحتل والمستبد ومحاولة تصحيح الفكرة الخاطئة التي يروجها المستعمر وسياسته القائمة على القمع ومحاولة ادماج الشخصية الجزائري. وقد ظهرت أصوات روائية حاولت محاكاة الآخر أدبيا وترديد أطروحاته الاندماجيةّ سياسيا لقد كانت تجربة الكتابة الروائية المشتركة بين كتاب وبين الأهالي الفرنسيين، بداية التعبير عن زواج أدبي وروحي، بين هذه الأنتلجنسيا (الأهلية) وبين مثيلتها (المستعمرة)، فالأعمال الروائية التي كتبها كل من (رونيه بوتيه Pottier René،(و)سليمان بن ابراهيم مع إتيان دينيه Etiennedinet تعتبر الأبرز(في المرحلة الديداكتية الروائية التي احتل فيها الروائي الأهالي موقع التلميذ[2]، وبذلك صدرت لأول مرة مجموعة شعرية بعنوان: "أساطير وأشعار الإسلام" لصاحبها سالم القبي 1917 سنة Contes "Islam'L de poèmes et ثم تلتها مجموعة شعرية أخرى بعنوان "أنداء المشر "Rosée Orient"سنة 1920 وكتب القايد بن الشريف 1879-1921 سيرته الذاتية ونشرها سنة 1920م عنوانها "أحمد بن مصطفى Goumier Mostapha ben" .

[1] حكيم مرزقي: كتب لا تموت سأهبك غزالة صرخة وجع للذين نكتب لهم ويجهلون وجودنا، مجلة العرب، ع 1196، تونس، 06 / 02 / 2021 ، ص 16

[2] احمد منور: مس حر احمد رضا حوحو: دراسة أدبية تحليلية مقارنة، مرجع سابق، ص 40.

" Ahmedكومي[1] وعلى هذا النحو ظهرت في هذه العشرية 1930-1920 خمسة أعمال أدبية منها مجموعة سالم القبي "الشعرية"، رواية" زهراء امرأة المنجميZ la femme de la " لعبد القادر حاج حمو، التي صدرت 1925 ورواية مأمون بدايات مثل أعلى idéal Dun ébauche'l Mammon لشكري خوجة التي صدرت 1928 ورواية العلج أسير بربروسيا barbaresques des captif euldaj elللكاتب نفسه سنة 1929"كانت هاته الروايات الأولى التي صدرت في العشرينيات والثلاثينيات عبارة عن نصوص أدبية تعلي من شأن ومقام الفرد الجزائري وتظهره في صورة إنسانية نبيلة بالرغم من الفقر والاستعباد بخالف الرواية الاستعمارية التي لا تقر أنّه إلا بالتوحش والتخلف ولا يمكن تجاوز هذه الفترة، دون أن نشير إلى الكاتب الجزائري جون Jean Amrouche عمروش الذي تمكن من أن يتغنى بلغة فرنسية لا تشوبها شائبة، فقد كان يتقن هذه اللغة على عكس اللغة العربية الفصحى أو العامية التي كان يجهلها. فكان هذا سببا في إحساسه بأنه فقد بعض المكونات الأساسية للشخصية الجزائرية الحقة، و قد انعكس إحساسه هذا في أعماله الشعرية المتكونة من مجموعتين شعريتين أوالهما الرماد Cendres سنة 1934 أما ثانيهما فهي " النجمة السرية secrète " Etoile'l التي نشرها سنة 1937 هاتين المجموعتين اللتين كانتا تنبضان بشعور الحنين إلى وطنه الأم و هو الجزائر.2024، وقبل أن تنتهي سنوات الأربعينات بدأت السماء الجزائرية الحقيقية تلمع في الأفق ولأول مرة يظهر تعبير الأدب العربي المكتوب بالفرنسية

[1] محمد العربي الزبيري: المثقفون الجزائريون والثورة، ط 2، دار الحكمة، الجزائر، 1995 ، ص 173.

في الجزائر وفي تلك السنوات كان الاستعمار الفرنس ي يتعامل مع اللغة العربية الفصحى باعتبارها من التراث وكان يتم تعليمها في أضيق الحدود في فرنسا، وهكذا وجد الجيل الأول من الأدباء الجزائريين[1] أنفسهم أمام اختيار واحد هو الكتابة باللغة الفرنسية التي يتقنونها ان الملاحظ للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في فترة ما بين الحربين كان بمثابة رد ذكي، ولكنه كان مسالما للأدب الكولونيالي الذي انتشر في نهاية القرن التاسع عشر . ولم تحمل فترة الثلاثينيات والأربعينيات أي تغيير يذكر في مجال الرواية رغم صدور بعض الأعمال خاصة بعد الحرب العاملية الثانية مثل رواية "الزنبقة السوداء"noire وما فعله "مالك حداد Haddad Malek مع بعض الخصوصيات التي رافقته طوال حياته فمن "رصيف الأزهار " إلى "سأهبك غزالة "إلى "الشقاء في خطر" ظل حداد يحمل مأساته المزدوجة وربما بحس مختلف عن الآخرين هذا الهم المزدوج الاستعمار واللغة هو الذي حدد مسار كل أعماله، فبالرغم من مأساة اللغة ظل هذا الأديب نقيا يعبر عن هموم وطنية وقومية وانسانية برؤية تقدمية في شكلها العام بعيدة عن كل روح متعصبة الأمر الذي ساعده على عدم السقوط في التعميم والغموض مثل بعض الكتاب الفرنسيين الذين عاشوا في الجزائر[2] لقد تميزت روايات مالك حداد بإشباع عاطفي خاص رغم بساطة تراكيبها النحوية ، حيث كشفت حالة البؤس الاجتماعي التي وصل إليها الشعب الجزائري لا سيما في فترة الحرب الكبرى التي عانى منها معظم فئات الشعب ، ومن ثم فقد عبرت عن معاناة.

[1] بشار سعيد: سيمياء الانتماء في رواية الانطباع الأخير مالك حداد، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، كلية الادب والعلوم الإنسانية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو، ص 40.

[2] المرجع نفسه، ص 45.

الفصل الأول:

الثورة الجزائرية في كتابات مالك حداد:

1. إشكالية الهوية والانتماء في كتابات مالك حداد.
2. تأثير الثورة على كتابات مالك حداد.
3. صورة الجزائر في كتابات مالك حداد

1. إشكالية الهوية والانتماء:

يتطرق الباحث في هذا الجزء إلى إشكالية الهوية والانتماء بما يتعلق بتحديد جنسية وهوية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية (في كتابات مالك حداد)، وكذا الدوافع والأسباب التي أسهمت في انتشار الازدواجية اللغوية بالجزائر. كما نشير أيضا إلى الظروف والعوامل التي حالت دون معرفة الكتاب باللغة الفرنسية، بالهوية أو الثقافة العربية ولغتها. فمن الكتاب الجزائريين باللغة الفرنسية نجد **مالك حداد** الذي يبرز الهوية الوطنية للأدب الجزائري، وتؤكد المسطرة القانونية ذلك الاتجاه، إن الخوض في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية إشكالية يعتريها غموض والتباس كبيران، خاصة إذا ارتبطا بمسألة الهوية والانتماء.

وقبل أن نشرع في تفسير إشكالية الهوية والانتماء وجب علينا أن نحدد أولا مفهومي الهوية والانتماء هذا في حين إذا استقرأنا الأدب المقارن، ألفيناه مدارس متعددة، فرنسية، وأمريكية وسلافية، وألمانية. الاختلاف قائم فيما بينها على مستوى التعريف والمنهج، فإذا نحن التفتنا إلى المدرسة الفرنسية وجدنا أنها تركز على اللغة كعنصر محدد لهوية النص، وبالتالي يشترط –حتى تصح– المقارنة أن يختلف النصان المقارنان لغة، كما تراعي في الوقت ذاته الصلة التاريخية ووجوب تحقيقها والتي لا تقوم المقارنة إلا بإثباتها قصد الكشف عن مناطق التأثير والتأثر[1].

[1] كفافي، محمد عبد السلام، في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي، بيروت، دار النهضة العربية، ط.1، 1982، ص.25.

فالمدرسة الأمريكية والانجليزية ترى أنّ إشكالية اللغة يمكن مراعاتها مع عنصر القومية وليس مع عنصر اللغة، بخلاف المدرسة الفرنسية التي سنحاول إعتمادها في هذه الدراسة فالإشكال قائم حول قضية اللغوي ودوره في تجسيد جنسية المكتوب.

قبل طرح إشكالية جنسية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، وقبل الخوض في الموضوع، يجدر بنا الإشارة إلى الأسباب التي أدت إلى الإزدواجية اللغوية في الجزائر، وتمثلت في عدة عوامل من بينها التاريخية والثقافية والاجتماعية خلفتها بالدرجة الأولى المرحلة الإستدمارية التي حاولت طمس الشخصية الوطنية عن طريق محاربة اللغة العربية[1].

كل هذه العوامل و غيرها أسهمت في خلق الإزدواجية اللغوية وتنميتها مما أوجد جيلا من الكتاب الجزائريين، يكتبون بلسان وقلم أجنبيين بالضرورة لعدم انتباههم لهذه الظاهرة بسبب سيادة اللغة الفرنسية، مما أدى بأحد الباحثين إلى القول: "وقد ظل هؤلاء الكتاب في معظمهم معجبين كل الإعجاب بالحضارة الفرنسية، بوجه خاص، و الحضارة الغربية بوجه عام جاهلين بالتاريخ العربي غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية، إذ أنى لهم أن يدركوا شيئا من ذلك و هم محرومون من الإلمام الكافي بلغتهم التي بواسطتها يطلعون على التراث العربي و كنوز حضارته الغنية بمعطياتها الإنسانية إطلاعا حقيقيا خاليا من الشوائب والشرور"[2].

[1] نعمان، أحمد، التعريب بين المبدأ والتطبيق، الجزائر، ش.و.ن.ت، ط.1، 1981، ص.9.

[2] مرتاض، عبد الملك، نهضة الأدب العربي في الجزائر (1925-1954)، الجزائر، ش.و.ن.ت، ط.2، 1983، ص.26.

بالإضافة إلى خضوع الواقع الثقافي والاجتماعي للواقع السياسي وتأزمه في ظروف مأساوية شديدة أدت بالضرورة إلى تناقضات وصراعات اجتماعية وفكرية أدت بدورها إلى إفراز أدوات تعبيرية أجنبية.

إضافة إلى ذلك، فتأخر الثقافة العربية في الجزائر، أوجد تخلفا في اللغة العربية، مما أوجد فجوة كبيرة في الحصول على أسلوب لغوي روائي مرن – في الأدب الجزائري بعامة، والقصصي بخاصة– فكان من البديهي أن يلجأ الكتاب الجزائريون إلى استخدام الأداة الأجنبية لملء الفراغ، فساهموا بطريقة غير مباشرة في تطور الفن الروائي نسبيا[1].

ومع نماء الروح الوطنية وقطع كلما يمت بصلة للفرنسية وجهت انتقادات لاذعة إلى الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وهذا يدعونا إلى سؤال سنحاول الإجابة عنه، وهو إلى أي حد يمكن للعامل اللغوي أن يتحكم في هوية النص الأدبي بعامة والجزائري المكتوب بالفرنسية بخاصة؟

إن أول ما يثيره هذا التساؤل هو قضية الهوية الأدبية التي ظلت تتنازعها أقلام وتحركها مذاهب عرقية مختلفة غير أننا نرى أنه من الصعب الإعتماد على مقياس القومية في تحديد هوية بعض الآداب لتعقد مشكلات القومية، بسبب إرتكازها على أسس متباينة وواهية في ظل غياب منهج مضبوط يحدد خصائص وطباع كل أمة ودورها في العملية الأدبية، ولأنه "إذا كان علينا أن نقر بأن الآداب في لغة واحدة هي آداب قومية متميزة، كما هي الحال في الأدب الإنجليزي والإيرلندي. ثمة أسئلة في حاجة إلى أجوبة، نحو: لماذا لا يدخل نتاج سميث وشترن، وشريدن في حلقة الأدب الأيرلندي بينما يعتبر ييتس وجويس فيها، وهل لبلجيكا وسويسرا والنمسا آداب مستقلة؟ وليس من السهل أن تحدد

[1] الركيبي، عبد الله، القصة الجزائرية القصيرة، الجزائر، م.و.ك، ط.1، 1983.– ص.ص.249-273.

النقطة التي يكف فيها الأدب المكتوب في أمريكا عن كونه " أدب المستعمرات الإنجليزية" ليغدو أدبا قوميا ومستقلا. فهل المسألة مجرد الحصول على الإستقلال السياسي؟ أم أنها مسألة الوعي القومي لدى الكتاب أنفسهم؟ وهل هي إستعمال مادة الموضوع القومي "واللون المحلي أم أنها ظهور أدب قومي بأسلوب محدد"[1]

وتأسيسا على ما سبق نجد بعضهم من يعترف بعروبة هذا الأدب وانتمائه الوطني الجزائري على الرغم مما يحمله من ثقافة غربية، ومن تدوين لغوي أجنبي، وبعضهم من تبنى في تحديد هوية هذا الأدب، رأي الناقد الفرنسي كلود ماني[2] في كون هذا الأدب يعيش عصر القصة الأمريكية باعتبار أن الظروف التي أفرزت أدبا قوميا في أمريكا – الذي كان محل إعتراف – هي الظروف نفسها التي يمر بها أدب شمال إفريقيا – المكتوب باللغة الفرنسية– كما أنه يحمل الشخصية والروح الوطنيتين في دفاع هؤلاء الكتاب عن ماض وتقاليد جزائرية خاصة. ومما يزيد لهذا الرأي تأييدا، التصريح القائل بوجوب "الإعتراف بشخصية المغرب العربي، ولا شك أن الأدب الجديد في إفريقيا الشمالية يعطي سببا واضحا لهذا الإعتراف.[3]"

إنّ عدم احتواء المقياس القومي على منهج نموذجي في تحديد جنسية الآداب لم يكن ليحل الإشكالية المطروحة حول الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، من أجل ذلك يبقى الإشكال قائما حول تحديد الهوية وعناصرها القومية، كما حاول بعض النقاد والباحثين إلحاق الأدباء والروائيين

[1] ويلك، رينيه؛ وارين، اوستن، نظرية الأدب: ترجمة، محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.2، 1981، ص.55.

[2] أبو القاسم، سعد الله.، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط.الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984، ص.102.

[3] المرجع السابق، ص.113.

الجزائريين بالأدب الفرنسي بحجة أن قبل سنة 1962، كان القانون الفرنسي يلحق الجزائر بفرنسا ويعتبرها امتدادا جغرافيا لها، وأي إنتاج أدبي فيها ينضوي تحت مظلة الأدب الفرنسي والجهود التي قام بها الأدباء المعمرين في معالجة العادات والتقاليد الجزائرية وواقع المعمرين وفرض التعايش.

ولم يتوقف المعمرون عند هذا الحد بل أسسوا توجها أدبيا جديدا سموه بالمدرسة الجزائرية، ومن المنظمين تحت لوائها (ألبير كامو) في رواية (الغريب) والتي جردت أحداثها في مدينة وهران، ولكنه من المواطنين للسياسة الفرنسية، وأنه عاش بالجزائر متشبعا بالثقافة الفرنسية والفكر الغربي، ولم يفهم رؤية الشعب الجزائري ولا يشعر بمعاناته ومسؤوليته تجاه قضية وطنه ولم يعرف معنى ازدواجية اللغة، وهذا ما وضحه عبد الله الركيبي في قوله: "الفرق يتمثل في الرؤية، فرؤية الكتاب الفرنسي تختلف تماما عن رؤية الكتاب الجزائري سوى اللسان الفرنسي.

وعلى ضوء ما سبق، نجد عبد الله الركيبي يقف الموقف نفسه من هذا الأدب – المكتوب باللغة الفرنسية – مصرحا: " وجملة القول فإن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، قد أوجد لظروف وأسباب في مرحلة معينة، وهو إن كتب بلغة أجنبية، فإنه عبر عن مضمون جزائري وواقع وطني الأمر الذي يجعل منه أدبا محليا وطنيا[1]"

فإذا كان هذا القبول متأتيا من أحد الأدباء الجزائريين المدافعين بحماس عن عروبة الجزائر، وضرورة الأخذ بالإعتبار هذه النصوص المكتوبة باللغة الفرنسية فمن الغرابة بمكان أن يكون الرأي نقيضه صادرا عن دارس يحمل لواء العروبة نفسه مبررا موقفه بضرورة اعتماد هذه النصوص للحرف العربي، و

[1] ينظر عبد الله الركيبي، القصة الجزائرية القصيرة، ص.249.

من بينهم أحد الدارسين الجزائريين الذي صرح قائلا : "إن هذا الأدب غريب في نفسه، ومنفي عن موطنه الذي كتب فيه، و لم يستطع أن يلعب دورا كبيرا في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر فضلا عن أن يلعب دورا خطيرا في إذكاء نار الثورة التي قيضت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة[1]"

نتبين من خلال هذا التصريح الأخير أن الباحث يعتمد على نتيجة، ودور الوظيفة الفنية والأدبية واللغوية وغيابها في تحريك الأدب الجزائري، وبالتالي ينفي إنتماءه إلى الهوية الجزائرية.

ولا يمكن إذن أن تقدم الشخصيات في الكتابات الروائية دون انتماءاتها والقضايا التي تتعلق بها، وقد حرص "مالك حداد" على طرح مشكلة الإنتماء من خلال شخصياته، خاصة شخصية "سعيد" التي تداخلت فيها عناصر الصراع بين الإنتماء الجزائري والإنتماء الفرنسي، والمشاركة في الحرب ضد المستعمر على أساس أن الثورة الجزائرية كانت ضدّ الظلم الذي سلطته فرنسا على الشعب الجزائري، وأرادت أن تفقده هويته، ولهذا الاتصال البطل بالثورة كان تجسيدا لاختيارات صعبة عرفها أبناء الجزائر الذين تربوا في كنف المدرسة الفرنسية.

ومواكبة منا لما سبق نجد أن كثيرا من الدارسين، والباحثين قد جاروا في رأيهم بالإنتساب الوطني لهذا الأدب – الباحث أبو القاسم سعد الله – في ضرورة التعامل مع هذه النصوص تعاملا موضوعيا.[2]

[1] مرتاض، عبد الملك، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، ص.6.

[2] وسيني، الأعرج، إتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ط.1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1986، ص.77.

في ظل هذا الطرح المتباين، آثرنا الوقوف عند شخصية عربية أخرى رغبة منا في الاطلاع على ما خلفته هذه التجربة من مواقف إزاء الأدب المكتوب باللغة الأجنبية بعامة، والأدب الجزائري المكتوب بالحرف الأجنبي بخاصة هذا وبناء على تلميحاته الداعية إلى عدم إغفال الظاهرة اللغوية في تحقيق فعل الإنتماء القومي للأدب الجزائري – وضرورة أخذ الوسيلة اللّغوية بعين الإعتبار في تحديد هوية النص الوطنية. وتتمثل هذه الشخصية في الشاعر العربي عبد المعطي حجازي الذي يوضح بـ "... أن الأدب لا ينسب للغة التي يكتب بها عندما تقول رواية مكتوبة بالفرنسية هي فرنسية يكتبها جزائري... مقدما فيها رؤيته للعالم نعم ولكنها فرنسية، مثل تماما الشعر العربي نصفه كتبه فرس ولكنه عربي بلغته، ومتى تصبح جزائرية إلا بعد أن تصبح الفرنسية لغة وطنية، المستقبل كما هو واضح بالعربية وبالرغم من أن الفرنسية لغة نافذة على اللغة العالمية"[1]

لعل ما يلاحظ على هذه الآراء هو الاختلاف حول ظاهرة الإنتماء، أو بالأحرى التباين في التحديد النظري للمقياس الموضوعي، الذي نستطيع على أساسه كسر الحواجز بين الدارس والمبدع، وبالتالي إيجاد منهج ما يسمى بالمقاربة[2]، وإسقاطه على الموضوع لإزاحة هذه الضبابية التي تشوب الإشكالية الأخيرة، وبالتالي فك العزلة عن النص المكتوب باللغة الفرنسية، ويومها يتسنى لنا الإجابة عن السؤال الأبدي، هل تكمن هوية النص المكتوب باللغة الأجنبية الفرنسية فيما يوحي به مضمونه دون شكله؟ أم فيما يوحي به شكله دون مضمونه؟ أم فيما يوحي به كلاهما؟

[1] سلوم، صغير؛ رحمان عبد المعطي حجازي، فاطمة، يصرح للشروق: في الشروق الثقافية أسبوعية (الجزائر)، مؤسسة الشروق للإعلان والنشر، أفريل 1994، ع.40، من 12.

[2] المسدي، عبد الله.، الأسلوب والأسلوبية، ط.2، بيروت، الدار العربية، 1982، ص.187.

إذ نجد أن الكاتب مالك حداد يقر بدور الأدب الجزائري المكتوب بالحرف الأجنبي، في تصويره، و تجسيده للمجتمع الجزائري بوسيلة لغوية أجنبية، مما انتج خطابا هجينيا، و هذا حصيلة تفاعل الجسد اللغوي الأجنبي بالروح العربية الجزائرية، إلا أن طغيان الروح الوطنية، و طفوحها على القالب اللغوي الأجنبي أدى بالنقاد الفرنسيين إلى رفض الأدب الجزائري، و هذا تبعا لقول مالك حداد على نحو : " إن أكبر النقاد في فرنسا يرون أن أدبكم، هو أدب أجنبي يختلف اختلافا كثيرا عن الأدب الفرنسي... أو بالأحرى يستعملون الصيغة التالية : الأدب الفرنسي ذو التعبير الجزائري"[1]

لقد انعكس ذلك الرفض الأخير من قبل النقاد الفرنسيين لذلك الأدب على نفسية الكاتب مالك حداد، وبالتالي الإحساس والتساؤل حول حقيقة هوية الأدب الجزائري على نحو إلى أي مدى يساهم العامل اللغوي في تحديد جنسية الأدب الجزائري ذي الحرف الأجنبي؟ وهل اللغة محدد للهوية الأدبية خاصة إذا افترضنا أنّ لغة الأدب الجزائري مجرد تجسيد للانتماء الوطني؟

لقد بين الكاتب الجزائري مالك حداد في أكثر من موقف حقيقة الإنتماء القومي للأدب الجزائري، والذي لا يرَدُّ حسب رأيه إلى عنصر اللغة فحسب، ولا إلى مجرد عاطفة نكنها ونقدس علاقتها بالموضوع، أو بالبلد، كافية لتحديد فعل الإنتماء. كون الجنسية الجزائرية ليست إقرارا قانونيا، كما لا توجد لها أي علاقة بالمشروع، ولكن بالتاريخ، أما عن الأدباء ذوي الأصل الأوروبي، والذين آثروا الجنسية الجزائرية فالمستقبل هو المشترك الوحيد.

[1] DEJEUX, J Situation de la littératures Maghrébine de langue Française, Alger, Ed. OPU, 1982, p. 84

ولقد كان مالك حداد من أبرز الكتاب الجزائريين الذين تطرقوا لمسألة أزمة الهوية الثقافية الجزائرية في معظم أعمالهم الروائية، وقد حاول من خلال روايته " الإنطباع الأخير" طرح موضوع الهوية الجزائرية والإنتماء القومي، وإظهار موقفه من الحرب، ويبدو أنه مثل الثورة التحريرية من خلال إشكالية الهوية التي سعى المستعمر لطمسها من خلال ّ استراتيجية التعليم باللغة الفرنسية لتنشئة جيل جديد يكون لسانه فرنسيا ويميل بذلك للهوية الفرنسية.

إنَّ الإنتماء عنصر ضروري لكل إنسان، و من دونه لا يمكن أن يتميز عن بقية الناس، و يمكن تعريف الإنتماء بأنه: "العلاقة الإيجابية والحياتية التي تؤدي إلى التحقق المتبادل تنتفي منها المنعة بمفهوم الربح و الخسارة، و ترتقي إلى العطاء بلا حدود(...) و يتجلى الإنتماء بصورة عالية عندما يتعرض الوطن لأي اعتداء خارجي، والإنتماء قد يكون طبيعي فطري (...) و قد يكون انتماء عاطفي تجاه موقف أو ظروف طارئة، و لكن أرقى انتماء هو الإنتماء المنطقي الناتج عن المعرفة و إعمال العقل، ونسبة المنتمون منطقيا قليلة ولكنها دائما فاعلة ومؤثرة في حركة المجتمعات[1]

فالانتماء والهوية لم تفقد قيمتها الوطنية من خلال كتابات مالك حداد الذي حاول في كتاباته أن يجسد البعد الوطني والهوية والأصل العرقي متجاوزا بذلك كل ما وجه له من انتقادات.

وتعتبر رواية "الإنطباع الأخير" أنموذجا حيا عن النصوص الروائية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، التي صورت كل أشكال المعاناة والمآسي التي عاشها الشعب الجزائري جراء المجازر والممارسات العنيفة

[1] عبد الباسط هويدي: المنظومة التربوية وفكرة الإنتماء الاجتماعي، مجلة العلوم الإنسانية والإجتماعية، ع،26 جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي- الجزائر- ،2016 ص ،116.

التي ارتكبها المستعمر الفرنسي في حقه .لقد حاول مالك حداد في روايته "الإنطباع الأخير" أن يطرح من خلال شخصياتهّ مجموعة من أفكاره الإيديولوجية وأن يبين للقارئ أن معايشة سكان المدن للمعمرين لم تصل أبدا حد الاندماج حيث بقيت فروقات كثيرة تفصل بينهم ولم يكن بإمكان الجزائريين التخلي عن عاداتهم وتقاليدهم ومبادئ دينهم، وكان بطل الرواية "سعيد" أحسن مثال لتمثيل هذا الواقع المعيشي، فعلى الرغم من تعليمه الفرنسي ومستواه الثقافي وعلاقات الصداقة التي جمعته بأبناء المعمرين إلا أنّه وجد نفسه في لحظة اختيار حاسمة و هو الذي ارتبط مباشرة بهويته، ومن ثم كيف سنحاول التركيز على هذه الشخصية الرئيسية لنتبين كيف نسج مالك حداد خيوط هذا المسار السردي ليكتب عن إشكالية الهوية التي ترتبط مباشرة بالثورة التحريرية الجزائرية التي كان هدفها الأساسي إسترجاع الوطن المسلوب والذي سلبت معه هوية شعب بأكمله.

وعلى هذا فإشكالية الهوية والانتماء في كتابات مالك حداد تعتبر أنّ اللغة مجرد وسيلة لنقل وإثبات هوية المجتمع الجزائري من خلال عروبته وأصله العرقي وانتماءه الديني وبعده الاجتماعي.

2. تأثير الثورة على كتابات مالك حداد:

لقد كان مالك حداد أديبا نقيا، يعتبر عن همومه وطنية وقومية إنسانية، برؤية تقديمه في شكلها الكلي، حيث ركز على الجو القلق والتوتر الذي طبع الحياة المعيشية، وجعل أبطاله "شخصيات الرواية" يعيشون ذلك القلق والتوتر ويعانون الحرب التحريرية وآثارها، وهو ما جعل[1] الكثير من

[1] عامر رخيلة: 8 ماي 1945 المنعطف الحاسم في مسار الحركة الوطنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص .9

الدارسين يرون أنّ أعماله تمثل الرؤية الأكثر عاطفية تجاه الثورة التحرير[1] لقد خاض مالك حداد في مختلف القضايا السياسية التي تخص المجتمع الجزائرية.

تأثير الجانب السياسي والعسكري على كتابات مالك حداد:

أ. أحداث 08 ماي 1945:

تكلم مالك حداد عن بعض القضايا السياسية والعسكرية من بينها أحداث 8 ماي 1945 التي وصفها بأحداث الربيع الدموي إلى الثلاثاء الأسود التي كانت في كل من قالمة وخراطة وسطيف وشملت كامل التراب الوطني والتي تفنن فيها الاستعمار الفرنسي في التنكيل بالجزائريين وابادة مظاهرات الشعب الجزائري الأعزل الذي خرج يطالب بالاستقلال وتذكير فرنسا بالتزاماتها ووعودها[2] حيث اعتبرت مجازر 8 ماي 1945 حلقة لسلسة طويلة من معاناة الشعب الجزائري وهذا ما ذكره في رواية الانطباع الأخير والتلميذ والدرس.

ب.السياسة الاستعمارية:

طرق مالك حداد إلى العديد من المشاريع التي جاء بها الاستعمار الفرنسي من بينها مشروع بلوم فيوليت حيث تضمن هذا المشروع ثمانية فصول شملت إصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية ومما الشك ان هذا المشروع هو تنفيذ لفكرة دمج الجزائر لفرنسا بصورة تدريجية عن طريق النخبة الجزائرية المتخرجة من المدارس الفرنسية حيث تضمنت المادة الأولى منه منح فئات الأهالي الجزائريين حق

[1] نفس المرجع، ص 11.
[2] نفس المرجع، ص 14.

المواطنة الفرنسية، والأهالي الذين اكملوا الخدمة العسكرية برتبة ضابط وبالهداف سياسة لهذا المشروع تقييد الحريات العامة وقهر الشعب الجزائري وإبقاء الجزائر مستعمرة تابعة لا غير، وكسب نخبة المسلمين لصالح القضية الفرنسية[1].

لقد عملت بعد سنين طويلة انه جعل من (مشروع بلوم–فيوليت) [2]مثال على أنه كان البرنامج الذي يؤدي بنا إلى دراسة بعض الحقب والأدرى أيه نية كانت تدفعه لاستعادة قوة جرأته[3]، كما وضعت معسكرات التجمع تحت اشراف ضباط من اقسام العمل الخاص ومنع التزود بالسالح وتقسيم البلد عسكريا الى مربعات، تتسع مناطق المحظورة لتشمل الجزائر بأسرها وكان هدف الجيش التحرير إعادة احتلال الأراضي[4]. كما عملت السلطات الاستعمارية على وضع الاسلاك الشائكة في شرق الجزائر وغربها وقد نجحت العمليات الفرنسية المتمثلة بتفتيش وتمارس رقابة مشددة على تهريب الأسلحة لجيش التحرير الوطني.[5]

كما تحدث مالك حداد عن سياسية الأخرى التي تمثلت في نهب الأراضي للجزائريين وكذلك قانون حظر التجول وعمليات التمشيط والاغتيالات والاعتقالات. "عميقة جدا، أخاف ان يصعب ردم ها

[1]محمد حربي: جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، تر: كميل قيصر داغر: ط،1 مؤسسات الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1983 ص .173-172

[2]خميسة مدورة: مشروع لوم فيوليت (صالحات ضائعة بين تماطل حكومة الجبهة الشعبية وسلطة اللوبي الجزائرية) 1936-1938 مجلة دورية دولية محكمة، ع،07 الجزائر، ص .119-144

[3]

[4]محمد حربي: جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، تر: كميل قيصر داغر: ط 1، مؤسسات الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1983، ص 172.

[5]المرجع نفسه، ص 173.

الان وقد سال لدم لتمشيطات الاغتصابات التعذيبات الاغتيالات بالجملة السجن الاعتقالات التعسفية".

وازداد تمرد الجنرالات في الجزائر من أجل القضاء الثورة الجزائرية واختلفت سياسية جنرالات على أمل إبقاء على "الجزائر فرنسية" وجاء الجنرال ديغول بالعديد من المشاريع الإستعمارية من بينها الالتفاف حول الصحراء للاحتفاظ بثرواتها البترولية وعمل على خلق قوة ثالثة موالية لفرنسا يمكن من القفز فوق جبهة التحرير الوطني.[1]

والبحث عن عملاء خارج الثورة وخلق طبقة جديدة في الجزائر تتعامل مع فرنسا، كما عمل ديغول على الالتفاف حول الثورة وتجفيفها والقضاء على إرادة شعب ولكنها لم تفلح[2]، وأرغموا الجنرال ديغول ذاته على احترامهم هؤلاء القراء الذين يحيون ولا يكتبون التاريخ.

وكذلك الجنرال بيجو إذا أعلن في تصريح له قائلا: "هكذا تتم عملية الحرب مع العرب، فيجب أولا وقبل كل شيء قتل كل رجالهم من سن 15 فما فوق والاستلاء على الأطفال والنساء... ثم إرسالهم إلى جزر الماركيز أو الى جهة أخرى وبكلمة مختصرة إفناء كل ما من شأنه يزحف تحت أقدامنا كالكلاب"[3]

[1] سعدي بزيان: جرائم فرنسا في الجزائر من الجنرال (بوجوا) الجنرال او سأريس، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 8

[2] سعدي بزيان، المرجع السابق، ص 09.

[3] محمد حربي، المرجع السابق، ص 117.

انبثاق من بصيرة قصيرة ونهج سياسي أكثر منه انبثاقا من التعصب الديني حلم الكاردينال لا فيجري، لحق بحلم الماريشال (بيجو): البندقية والمحراث، لجأ إلى الاستعانة بالسيف والصليب.[1]

مع اندلاع الثورة التحق بها مالك حداد ككل الجزائريين لكن بطريقته الخاصة من خلال أعماله، حيث آمن أن الثورة هي الملجأ الوحيد لتحقيق الاستقلال العودة إلى الوطن ورفض فكرة التعايش بين الجزائر وفرنسا فعالج في الحوار الذي دار بين سيمون وخالد بن طوبال "سأل سيمون صديقه:

- وهل تمكث زمنا طويلا؟
- أجهل هذا... بقائي مرهون بالحرب فهي تقرر نيابة عني"[2]

فهنا بين حداد أن فرنسا لن تمكث كثيرا بعد في الجزائر، فالثورة التحريرية التي وصفها بكلمة "الحرب" هي التي ستقرر، خروج المستعمر من وطنه ورجوعه لوطنه.

وهاجم حداد في مؤلفاته السياسة الاستعمارية خاصا الاغرائية التي تحاول بناء جسور تواصل بين المستعمر والجزائريين حيث حاولت إغرائه بجمال الحضارة والعمران الفرنسي من خلال حوار دار بينهما:

- أتعرف بلوا Blois من قبل؟
- كلا

[1] سعدي بزيان، المرجع السابق، ص 13.

[2] مالك حداد: ليس في رصيف الازهار من يجيب، المصر السابق، ص 15.

يبدو القصر كأنه صنع حلواتي، زينة واجهته في يوم العيد، تقع حجارته الحمراء بنوع من الهدوء لا يعرف نكهة.[1]

شبه حداد الاغراءات التي تقوم بها السيدة "مونيك" لخالد بن طوبال بالسياسات التي اعتمدها المستعمر الفرنسي والتي تعمل على إغراء الشعب الجزائري.

فعمل كل من سوستيل وديغول على إغراء الشعب الجزائري من خلال تقديم مشاريع إصلاحية، فسيوستيل جاء بإصلاحات سنة 1959 إقتصادية أو اجتماعية من أجل الحفاظ على الجزائر الفرنسية، وامتصاص غضب الجزائريين، فتهدف إصلاحات سوستيل إلى دمج المجتمع الجزائري ومحو الشخصية العربية الإسلامية والذوبان داخل الإطار الفرنسي، والهدف الأكبر هو مكافحة جبهة التحرير الوطني ومحاولة القضاء عليها[2]وتضييق الخناق على الثورة وعزلها عن قاعدتها الشعبية التي استمدت الثورة منها قوتها واستمرارها[3] ولم يخرج ديغول عن مضمار إصلاحات سوستيل لأنها مشروعه كذلك بهدف الى إخماد الثورة والقضاء عليه، لكن هذه المشاريع فشلت وتم صدها ورفضها من الشعب الجزائري.

[1] المصدر نفسه، ص 22.

[2] الغالي غربي: فرنسا والثورة الجزائرية 1954 – 1958، دراسة في السياسات والممارسات، دار غرناطة (د. ت. أ، د. ب. ت)، ص 208.

[3] مصطفي طلاس: الثورة الجزائرية، دار الشورى، بيروت، 1982، ص 159.

كانت تقف فيما وراء حدود الأخلاق وقيما وراء حدود الكرامة، كانت بسيطة بساطة رغبتها يا سيد الماضي هلا منحتني هذه الأيام الثلاثة. لم يصفع خالد بن طوبال المرأة من قبل إلا أنه فعل ذلك.[1]

ووصف مالك حداد في رواية رصيف الأزهار صد بن طوبل لمونييك إلا أنّها ما زالت تحاول حيث أراد أن يبيّن أنّه رغم السياسة الاغرائية للمستعمر إلا أنّه لا زال يحاول، ووضع حداد شخصيات أو أبطال أعماله في عقبات ومغريات، ليثبت من خلالهم أنّه يدافع والشعب الجزائري عن قضيتهم الوطنية مهما كانت مغريات الحياة.

لكن خالد لم يجب، وضغط برجله على جهاز السرعة وأخذ السير نحو باريس[2] ورأي حداد أن الثورة الجزائرية شرف له ولكل جزائري وهي التي سترجع حرية الجزائر ما اسمها؟

- قال خالد: الحرية
- وردت الصغيرة: ماذا تقول؟ أورية.
- فأردف خالد ينطقها. كلا بل حرية، لا أورية.
- حرية بالحاء الا تتمكنين من نطق الحاء.[3]

وعبر حداد عن رفضه لفكرة الجزائر فرنسية وصرح بأنّ الجزائر حرة وللجزائريين فقط وهذه هل ألقيها في النار، هل أحرقها أيضا؟

[1] مالك حداد: ليس في رصيف الازهار من يجيب، المصدر السابق، ص 86 – 87.
[2] المصدر نفسه، ص 26.
[3] المصدر نفسه، ص 53.

- فيتردد خالد. انتظري قليلا لأعيد قراءتها.
- ولكن كلا! مستحيل. سوف يكون هناك أشياء كثيرة يجب قراءتها وهكذا راحت الأشعار تتلوى بين اللهب، ويتوارى الشعر في غيابه الدخان وفي الرماد
- خالد يزمجر قيلا: احرقي كل شيء.[1]

فقصد حداد يحرق بطل روايته لأشعاره، بمثابة لحرق فكرة الجزائر فرنسية وحرق الماضي وذكريات المستعمر، ورغم أن حداد لم يشارك في المعارك ولم يصعد للجبال الا انه ذكر في مؤلفاته الثوار المرابطين في الجبال.

كان خالد يتخيل وريدة في حياتها الجديدة، فيحلم أحلام اليقظة وسط الملاحم، لم تكن أحلامه إلا بطولة وحنانا، ومن خلال الجبال الزرقاء تصون سرها وغيورة من سموهم شاعرة برفعتهم، كان يستنشق طبق زوجته وهي تعتني بالجرحى وتراسي المحتضرين.

الهوية الوطنية والعربية:

تمسك "مالك حداد" بكل ما يتعلق بالهوية الوطنية والانتماء للوطن فرغم منفاه تمسك بهويته، واستنكر سياسة فرنسا التي تحاول طمس الهوية الجزائرية، مجسدا ذلك في الكثير من المقطوعات السردية في مؤلفاته. ففي كل مرة يحمل قضية وطنه ويدافع عن انتمائه إلى هذا الوطن من خلال استعانته بشخصيات أعماله، ففي رواية ليس في رصيف الازهار من يجيب اختاره شخصية "خالد بن طوبال" التي تشبهه الى مدى بعيد حيث أراد أن تكون هذه الشخصية مماثلة له، مدفعا على جزائريته

[1] المصدر نفسه، ص 40.

أو شخصية "سعيد" وتحدث أيضا عن سلب المستعمر للهوية من الشعب عنوة باستعمال كل الطرق والأساليب من برامج تعليمية مفرنسة "مقاعد الشباب، لدراسة يرغسون وديكارت ولتنكر للشيخ (بن باديس) ولشعراء الجزائر هؤلاء الذين لا اسم لهم ولا لغة"[1] فمن ذاكرة أبطال أعماله دافع "حداد" عن انتمائه لوطنه وهويته التي سلبها المستعمر منه، وأبرز الفيصل بين ما هو جزائري وما هو فرنسي.

ووظف "حداد" عبارات تؤكد إيمانه بوطنه مثل الحرية، الشتاء يشرف على نهاية الحرب سوق تنتهي، وكذلك وظف عبارات الوداع التي تدل على الانفصال بين فرنسا والجزائر، وبداية الاستقلال والحرية "أجل إني مغادر، الثلاثاء القادم"[2] كان خالد مسترخي، مغتبطا في ان جرى هذا اللقاء الأخير في مناخ يلزم فيه المرء حدوده دون تصادم"[3]، وضف خالد يوم الثلاثاء لرمزيته دعا كل الجزائريين يوم الاستقلال، ولم يغفل "حداد" عن الهوية العربية التي حاول الاستعمار القضاء عليها بكل الطرق من خلال تحطيم اللغة العربية، لذلك عكس حداد هويته العربية من خلال أبطال روايته والوقائع التي واجهتم، حيث صرح من خلال "خالد بن طوبال" أنه عربي.

- أنا عربي مونييك، والحياء يمنعني من ذلك[4]، وإن من صفات العربي الحياء، ويقول في جولة أخرى "إنّ قلبي عربي، كثير الألغاز[5] وتعمد "مالك حداد" على التصريح بهويته العربية التي كانت تعتبر الهمة، فدافع عن عروبته من الحرف الى الكتابة.

[1] مالك حداد، سأهبك غزالة، المصدر السابق، ص 146.
[2] المصدر نفسه، ص09.
[3] المصدر نفسه، ص 103.
[4] المصدر نفسه، ص 104.
[5] المصدر نفسه، ص 60.

- فما اسمها؟
- فقال خالد حرية
- وردت الصغيرة
- ماذا تقول؟ أورية
- وأردف خالد يحدد نطقها: كلا بل حرية لا أورية، حرية بالحاء، ألا تتمكنين من نطق الحاء؟[1]

وأصر حداد على نطق الحروف العربية ومخارجها بشكل صحيح ليثبت عروبته ويقول أنّه عربي يعرف العربية. كان خالد بالطبع ينطق الكلمة كما ينبغي لها بالعربية بالحاء.[2]

فرغم ما كتبه مالك حداد باللغة الفرنسية الا أنَّ أعماله تميزت بالأسلوب العربي الجمالي.

الهوية الثقافة الجزائرية.

تتحدث مالك حداد عن الهوية الثقافية التي تجلت في رواية "التلميذ والدرس" التي كانت فتاة جزائرية وعندما غادرت إلى فرنسا أصبحت لها ثقافة الأخرى حيث تخلت عن الهوية الجزائرية وألبست ثقافة الفرنسية، كما تحدث عن المرأة المثقفة بثقافة الأخر وهي الفرنسية وذلك من خلال انسلاخها عن عاداتها وتقاليدها، وبدأ التأثر بالثقافة الاخر واضح[3]، ويتجلى ذلك من خلال قوله:

- عند عودتي، كانت فضيلة تدخن...

[1] المصدر نفسه، ص 76.
[2] المصدر نفسه، ص 53
[3] نسيمة بوزيد: المرجع السابق، ص 387 – 389.

- فالتدخين في ديننا مكروه.[1]

كما خاض مالك حداد كثيرا من جوانب الثقافية منها الحضارة الفرنسية وكذلك الحصار الفكري وتعسف الاستعمار الفرنسي في تطبيق سياسة الفرنسية، وحرمان الشعب الجزائري من الثقافة العربية الإسلامية وذلك من خلال تمجيد الحضارة الفرنسية حيث أراد مالك أن يوجه رسالة للشعوب المكافحة للتشبث بالثقة، والرغبة في التواصل والتقدم[2] كما يقرر "مالك حداد" في هذا الجانب على خصوصيات الهوية الثقافية الجزائرية؛ محددا بأفعال فرنسا وصدى في خنق الثقافة والسياسة الجزائرية، ومؤكدا على صمود الشعب الجزائري أمام مساعي التشويه التي تعرض له من طرف الاستعمار، وذلك من خلال تمسكه بمقومات هويته وأصالته الثقافية[3] عبر كلماته وكتاباته.

لن نكل من الترديد، بأن قوسا مفتوحا لخنق الثقافة والسياسة، ممتد منذ 124 سنة، من الخامس من شهر جويلية 1830 من كسوف شمس الاستعمار، من الواحد من شهر نوفمبر 1954، لن نكل من الترديد، بأن للإسلام ودعاته مكانة كبيرة من الجزائر، يرجع إليها الفضل في الحفاظ على إثر المعالم الأصلية التي لم ينل منها التشويه، على خصوصيته اليومية، وأصالته الثقافية، وأخيرا ما تبقي له من وحدة عضوية وتراص في مبادرته التأسيسية.[4]

[1] مالك حداد، التلميذ والدرس، المصدر السابق، ص 15.

[2] عز الدين المناصرة: الهوية والتعددية اللغوية قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن، ط 1 دار مجدولاي للنشر والتوزيع عمان الأردن، 2004، ص 352.

[3] وليد عثماني: شعرية الفضاء وغواية الصحراء في الرواية الجزائرية، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والادب الجزائري، ع 10، جامعة بسكرة الجزائر، 2014، ص 251.

[4]

كما صور مالك حداد الصحراء بواحاتها وجمالها وكثبانها ورمالها الإنسانية الذهبية، وذلك من أجل محافظة على مورث الثقافي، وكذلك تحدث عن العروس "الباتنية الأوراسية" التي توشمت بوشام الاصالة والتاريخ وصام "الشاوية" الضارب في جدور الرومان أولئك الذين يبعثون شعرية صارخة.[1]

كما تحدث عن علاقة شباب الجزائريين مع الأجنبيات وهذا ما جاءت به سياسة الفرنسية من اجل القضاء على الحضارة الجزائرية وعمل على الغز والثقافي من خلال زواج بالأجنبيات ويخرج لنا جيل له ثقافة مختلطة فرنسية وجزائرية وذلك تحت سياسة الادماج وهذا ما ذكره في روايته الانطباع الأخير.[2]

سعيد لا يكذب لوسيا تحب سعيد ولكنها لا تحب بلد سعيد.

3. صورة الجزائر في كتابات مالك حداد:

إن محاولة البحث عن الأدب الجزائري الحديث المكتوب باللغة الفرنسية المستمد من تراثنا الأدبي العربي عامة وكتابات مالك حداد بصفة خاصة باعتبارها أولا وقبل كل شيء النشاط الفني الفكري والاجتماعي تعكس روح العصر الذي عاش وترعرع فيه، لأنه كائن حي يتفاعل مع العصر الذي عاش يعيش فيه ويستجيب لمتطلباته، فتغدوا بذلك المرجع الأكثر دلالة واتساعا لتتبع مسيرة الأديب وآماله وآلامه ومعارفه وطموحاته وسط واقع اجتماعي يضمر في جوهره التوق إلى الحرية والتقدم حيث "نجد الواقع والتاريخ والثورة من أهم مقومات الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية وغذاءه التي يتغذى به، ولكن من مؤثرات الاستعمار على الجزائريين ترسيخ اللغة الفرنسية في أذهانهم وهذا نتيجة

[1] نسيمة بوزيد: المرجع السابق، ص 389.

[2] مالك حداد: الانطباع الأخير، المصدر السابق، ص 33.

للتجهيل والتفاعل وهذا ما جعل الرواية الجزائرية صنفين: الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية والرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وهذا لا ينكر على الرواية هويتها الجزائرية وذلك بسبب الروح التي كتبت بها أدبا جزائريا لامجال للطعن فيه"[1].

وصورة الجزائر في كتابات مالك حداد أخذت النصيب الوافر حيث يشيد مظاهر الاستعمار الفكري الذي تغلغل في المجتمع الجزائري، وهي محاولة دمج الجزائر مع فرنسا تأكيدا لقانون 1834 الذي يؤكد على أنّ الجزائر إيالة فرنسية.

ارتبطت صورة الجزائري في المتخيل الروائي لكتابات مالك حداد بالوجود الاستعماري الذي امتد من 1830 إلى 1962، لجأ هذا الاستعمار إلى عزل الجزائر عن محيطها الثقافي والحضاري وإلحاقها مباشرة بالدولة المحتلة واعتبارها مقاطعة فرنسية، مطبقا سياسة الاستيطان على نطاق واسع[2]، وبخلاف أشكال الاستعمار الأخرى، مثل الحماية الوصاية والانتداب، فإن الاستعمار الاستيطاني يعد أخطر أنواع الاستعمار، لأنه يقوم على اغتصاب الأرض والإبادة والقتل والاستعباد. احتل الأجنبي الأرض، ولكنه لم يستطع السيطرة على العقول والنفوس والمتخيل، ذلك أن المقاومة تمكنت من الانتقال إلى الأبنية الأنثروبولوجية العميقة للإنسان الجزائري. إنها ً غريزة البقاء التي غذت المقاومة الجديدة التي استعمل فيها الجزائريون سلاح الدمار الشام ل: الخرافة، الأسطورة، الدين، الغيبيات، المتخيل.. إلخ.

[1] أحمد منو ر: الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، صدر عن وزارة الثقافة، بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007، ص 25.

[2] سعاد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية، بيروت، 1967، ص 56.

في ظلمات ليل الاستعمار، تمكن الشعب الجزائري من حماية نفسه وضمان تماسكه ووحدته، متجنبا التلاشي والذوبان في كيان الآخر، سعت فرنسا إلى بسط نفوذها على كل المناطق، مستعينة في ذلك بمختلف استراتيجيات الهيمنة التي تضمن التحكم المعرفي والتطويق الفكري. لكن إن إرادة القوة لا تكفي لتحقيق السيطرة الكلية، لأن السلطان يرتبط دائما بالعرفان، لذلك تمت الاستعانة ببعض الحقول المعرفية ذات الطابع الاستراتيجي.

ومن هذا المنطلق، فإن الصورة المقدمة عن الجزائري خلال المراحل الأولى من الاستعمار، هي صورة تعكس قبل كل شيء استيهامات المحتل وإرادة القوة ونزعة القتل وروح الإبادة، عمد المستعمر إلى رسم صورة فولكلورية ومقيتة عن الجزائري بصفته إنسانا بدائيا متوحشا تحكمه الغرائز والنزوات والذهنية الأسطورية.[1]

إنها صورة تعكس قبل كل شيء رغبات المحتل الدفينة ومكبوتات العنصرية، سيطر المنظور الإثنوغرافي على هذه الكتابات التي احتفت بالمظاهر الخارجية للثقافة: المسكن، الملبس، الأكل، الشرب، الرقص، الفولكلور، الحرف والأعمال اليومية، وكل ما يتصل بالعادات والتقاليد والطقوس المختلف ة. حنطت هذه النظرة الإنسان الجزائري وأفرغته من ديناميكيته وفاعليته وإنسانيته وكينونته التاريخية، بحيث لا نلمس فرقا ب ينه وبين الأحجار والأشجار والحيوانات، توحي هذه الصورة بأننا أمام جماعة بشرية بدائية معزولة في الزمان والمكان ومرشحة للانقراض لتدخل متحف التاريخ[2].

[1] محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، د ط، 2006، ص: 4.

[2] نوال بن صالح، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير صراع اللغة والهوية، د. ط، ص 18.

والشيء نفسه ربما يكون قد فعله "**مالك حداد Malek Haddad** مع بعض الخصوصيات التي رافقته طوال حياته فمن "رصيف الأزهار لا يجيب" إلى" سأهبك غزالة "إلى "الشقاء في خطر" ظل **حداد** يحمل مأساته المزدوجة وربما بحس مختلف عن الآخرين هذا الهم المزدوج: -الاستعمار واللغة – هو الذي حدد مسار كل أعماله، فبالرغم من مأساة اللغة ظل هذا الأديب نقيا يعبر عن هموم وطنية وقومية وانسانية برؤية تقدمية في شكلها العام بعيدة عن كل روح متعصبة الأمر الذي ساعده على عدم

السقوط في التعميم والغموض مثل بعض الكتاب الفرنسيين الذين عاشوا في الجزائر، لقد تميزت روايات مالك حداد بإشباع عاطفي خاص رغم بساطة تراكيبها النحوية، حيث كشفت حالة البؤس الاجتماعي التي وصل إليها الشعب الجزائري لاسيما في فترة الحرب الكبرى التي عانى منها معظم فئات الشعب، ومن ثم فقد عبرت عن معاناة الجزائريين تحت نير الاستعمار حتى أنها نالت اعجابا وتقديرا من طرف الأوساط الأدبية، إذ أنها لم تكن فقط شهادات فجة عن الواقع المعاش القاسي، بل لا تقل ثراء عن أعمال كبار الكتاب العالميين، فعلى خلفية الحرب يلمح مالك حداد من خلال رواياته هذه إلى ذلك الحنين والشوق التراجيدي والثقافة المزدوجة الذي كانت سببا في رفضه الكتابة بعد الاستقلال.

ومن ثم فالرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية تعرض لنا "صور مختلف الناس بمختلف اتجاهاتهم وهي تمزق الأقنعة عن وجود أولئك الذين يمثلون الطبقات المستغلة، كما أنها تكشف بذلك عن وجود الأبطال الايجابيين المناضلين."[1]

فالصورة النمطية للجزائر في كتابات مالك حداد عموما أخذت شكلا مغايرا بحيث يؤكد على أن الاستعمار والغزو الفكري هو من جعل فرنسا تبقى لأكثر من قرن وثلاثون سنة، لا يَعِد مالك حداد قارئه في الانطباع الأخير برحلة سهلة بل سيرتطم منذ البداية بمطبّات لغته الانفعالية والمتشظّية، وكتابته الرمزيّة إلى حدٍّ بعيد، جمل الكاتب قصيرة، يبدو واضحاً فيها الاهتمام باختيار الكلمة، كما فيها الكثير من الإضمار الذي يطرق باب مخيّلة القارئ، وهي مزروعة بشيفرة الرموز التي تحتاج إلى التفكيك، ما يجعل كتابة حداد الروائية أقرب إلى الشعر. فمنذ البداية لا يتلفّظ الكاتب بكلمة "حرب"، إنّما يزرع رموزها بين الأسطر: الرشاشات والدبابات التي تذهب وتجيء في الشوارع وحظر التجوال ليلاً، كلّها تشكّل دليلاً قاطعاً على أنّ أحداث الرواية تدور في فترة الاستعمار الفرنسي للجزائر، مع ذلك ليست هناك أحداث دامية أو قصص بطوليّة للمناضلين الجزائريين يصفها أو يتحدّث عنها الكاتب، إنّما هي تواريخ في بعض الأحيان، يكرّرها كثيراً في الرواية، كالأول من نوفمبر 1954 والثامن من مايو ،1945 لتدلّ هي على الحدث الذي وقع خارج نطاق الرواية. أما الأحداث في رواية حداد فهي في الشخصية الرئيسة، سعيد، في عالمها الداخلي، في ألمها وفي تطوّرها، وفي الجرح البليغ الذي تركه الاستعمار في نفس الشخصية الرئيسة، وفي نفس الكاتب أيضاً. قصة

[1] عايدة بامية أديب، تطور الأدب القصص ي في الجزائر 1925 – 1967، تر: محمد صقر، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، د. ط. 1998، ص: 5.

تحوّلا لمهندس سعيد أنجز أول تحفة هندسية له. لقد بنى جسراً، وعلّق صورة له في منزله. مع أنّه فخور بإنجازه هذا، إلاّ أنّه لا يبدو أنّ عمله كمهندس يسعده أو يرضيه[1]. فعندما يسأله رسّام في الرواية عن عمله، يجيبه سعيد بأنّه لا يفعل شيئاً، فبطل الرواية يعيش حالة من الألم والضياع، ويشعر بأنه يعيش على هامش الحياة، بسبب الحرب وبسبب أخبار المجازر التي يرتكبها المستعمر وينقلها إليه الراديو في كل يوم. وما دام لم يفعل شيئاً حيال الأمر بعد فإنه لا يعتبر نفسه مفيداً، وعن ذلك تنتج تعاسته[2].

قصّة سعيد هي قصة تحوّله من مهندس إلى مناضل، ثم شهيد فيفكّر سعيد الذي غالباً ما يختلط صوت الكاتب بصوته في الرواية، بما تدفعنا إلى فعله الشريرةُ أي الحرية. كأنّ حداد في الانطباع الأخير يتبع خطى تحوّل الشخصية ومن ورائها أي شخص جزائري، من شخص عادي إلى مناضل.[3]

ففي الظروف التي كانت تمرّ بها الجزائر، يقول سعيد إنّ اختيار طريق النضال هو أن تختار أن تكون إنساناً، والاستشهاد هو التحوّل إلى بطل. من خلال تنقّل الشخصية في شوارع الجزائر، وفي مدينة "إيكس أون بروفانس" الفرنسية، ينقل الكاتب للقارئ الأسباب غير المباشرة لهذا التحوّل، فلدى سعيد شعور بأنه غريب في بلده، بأنّه مقيّد في العاشرة ليلاً يفرض عليه وعلى كل من "عيناه سوداوان" حظر التجوال، بينما الأوروبي يتجوّل في الشوارع بكل حرّية، "الأطفال الجزائريون في المدارس يتسلّقون نهج "جورج كليمنصو" مدراء الشركات أسماؤهم تشبه اسم "السيد رولان"، ومدراء المدارس يشبهون "السيد ريفيير" والممرّضات يشبهن "السيدة لوبوا"، بينما أهل البلد، هم بغالبيتهم من

[1] أمين الزاوي، صورة المثقف في الرواية المغاربية دار النشر راجحي، الجزائر، د ط، 2009، ص: 9.
[2] عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص 434.
[3] واسيني لعرج: اتجاهات الرواية العربية الجزائرية، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص 365.

العمّال والفقراء الذين يقطنون في "الحيّ العربي"، بعيداً عن الأوروبيين[1]، وإن كان ما يراه سعيد في بلده أو في فرنسا من احتقار له، ولكل من تفضح سمرته أصله الشمال أفريقي، سبباً غير مباشر لهذا التحوّل، فإنّ الدبابة التي تخترق السرد في كل حين، وعنف المستعمر شكّلا سبباً مباشراً في سيره نحو طريق انتزاع حقّه بالعيش كإنسان.لا يغيب لحظة عن بال سعيد تاريخ الثامن من مايو ،1945 تاريخ أول مجزرة جماعيّة ارتكبها الفرنسيون بحقّ الجزائريين، فتظلّ تحفر الذكرى في قلبه وعقله حتى تاريخ ميلاده الجديد، الأول من نوفمبر ،1954 تاريخ اندلاع الثورة الجزائريّة. كثيراً ما يتلاعب حداد بالأسماء عن طريق تحويلها إلى صفة، فسعيد لم يكن سعيداً قبل الاهتداء إلى درب الحريّة، ولا يصبح كذلك إلاّ عندما يتأكّد أنّ العملية التي سينفّذها مع أخيه بو زيد، وبعض المناضلين ستفسح في المجال أمام الصغيرة "زليخة"، ابنة بوزيد، بالعيش تحت سماء زرقاء، يرحل سعيد في النهاية تاركاً الانطباع الأخير عنه بأنّه اسم على مسمّى، والانطباع الأخير عن الجزائر بأنّها حرّة.[2] لا يمكن للقارئ إلاّ أن يلاحظ الشبه العميق بين الكاتب وشخصيته الرئيسة، فالبطل ضحّى بنفسه من أجل بلاده، كما كان حداد مستعداً أن يفعل من خلال مشاركته في الثورة الجزائريّة. يهب سعيد جسره أيضاً، وهو بذلك يهديها عمله، كما الكاتب. إذ إنّ الرواية تبدأ بجملة لعلي "يجب تخريبه" حوار يدور بين البطل وعلي، مخرّب الجسر، بضرورة تفجيره بالفرنسيين، وهكذا يكون تبدأ الرواية مع راوٍ، يراقب

[1] نور سليمان: الأدب الجزائري بين الرفض والتحرر، دار العلم للملايين، بيروت، 1981، ص 39.

[2] أحمد طالب الإبراهيمي: من الاستقلال إلى الثورة الثقافية، ط 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975

الشخصيات من الخارج، وليست لديه معرفة كلّية بهم. لكن كلّما دخلنا أكثر في الرواية، فقد الكاتب هذه الحياديّة، وأزعجته برودة هذا الراوي البعيد[1].

فيبدأ بإعطاء دور أكبر لسعيد عبر إسناد دور الراوي إليه في بعض المقاطع، فيتنقل من "هو" الغائب إلى "أنا" الحاضر.[2] ومع اقتراب النهاية، يقرّر حداد التدخّل شخصياً، ولا يعود اختباؤه خلف "أنا" سعيد، مقنعاً جداً. وإذا كان حداد يتوحّد مع شخصيّته الرئيسة إلاّ أنّه يصرّ على الابتعاد عن "شريف"، صهر سعيد، وهو نموذج الشخص الخاضع، المؤمن بتفوّق المستعمر والذي يريد عقد السلام معه، رغم رفض الآخر مقابلته بيد ممدودة، لأنه "خبيث كلّه"[3]. هو السيل الذي ينسى من أي جبل أتى فلا يعطيه الكاتب أكثر من راوٍ بعيد، لا يعرف كيف يفكّر هذا "غير الشريف" تحديداً، بل ينقل أقواله وتحرّكاته فقط، وكأنّ حداد ينفض عنه يديه كلّياً، فيقول الراوي مثلاً «كان (شريف) يفكّر كما يبدو للعيان"[4]. الاختلاف مع هذا كلّه لا يعلن حداد حالة عداء مطلقة للفرنسيين، فيختار أن تكون حبيبة سعيد، الفرنسية لوسيا إلاّ أنّ قصّة الحب هذه معقّدة هي الأخرى فلا يمكن أن نجزم إن كان سعيد يحبّ لوسيا فعلاً أو أنّه فقط "مع ما هو ضروري في الحياة"، ربما لأنه نفسه لا يعرف حقيقة شعوره أو لأن حبه مقرون بشعور بالذنب[5]، فالحب الذي يتكلّم عنه حداد ليس ذلك الذي ينتزع شرعيته بالقوة وسط العنف والكراهية، بل إنّ صوته لن يكون أقوى من صوت

[1] سعيد علوس: الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي، ط 2، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1981، ص 65.
[2] نور سليمان: المرجع السابق، ص 75.
[3] عبد المجيد حنون: المرجع السابق، ص 453.
[4] المرجع نفسه، ص 465.
[5] سعيد علوس: المرجع السابق، ص 254.

صواريخ الطائرات الفرنسية أو من أزيز الرصاص في الخارج. الحرب تقف متراساً بينهما، مانعة تطوّر علاقتهما. ولا تنبع استحالة هذه العلاقة من المجتمع بشكل أساسي، ففي الرواية يتزوّج إيدير، عمّ سعيد، الفرنسية سيمون، رغم معارضة والدته للأمر. إلاّ أنّ الحاجز الأساسي هو في الشخصيتين. في لوسيا وسعيد. فلوسيا "تحبّ سعيد. ولكنها لا تحبّ بلد سعيد"، وسعيد لا يرضى بأي شكل ترك بلده يداها الباردتان كانتا تنبّهانه إلى أنّه محموم. فهي الآتية من بلاد الثلج وهو بلده مغمور بالشمس. ورغم حبّها له إلاّ أنّها لا تتوانى عن التصرّف معه أحياناً بغرور المستعمر. فعندما يخبرها هو عن جسره، تجرحه هي بسؤالها إن كان "لا يزال قائماً"، ففي النهاية ليس سعيد إلاّ "مهندساً جزائرياً". يختلف الاثنان حتى في موتهما، فقبل مغادرتها نهائياً إلى فرنسا تصاب لوسيا برصاصة طائشة جرّاء اشتباك بين "الإرهابيين" والشرطة، والفرق هو أنّ رصاصة لوسيا حادت عن هدفها فأصابتها، أمّا الرصاصة التي قتلت سعيد، فأصابت هدفها مباشرة[1].

[1] المرجع نفسه، ص 76.

الفصل الثاني

الثورة الجزائرية في رواية الانطباع الأخير

1. مظاهر الاستعمار في الرواية
2. مظاهر المقاومة في رواية الانطباع
3. تمظهرات صورة الأنا والآخر في الرواية

1. مظاهر الاستعمار في الرواية:

كانت نظرة حداد للمستعمر شديدة الحساسية والصراحة، خاصة قبل سفره إلى فرنسا وتأدية الخدمة العسكرية في ثكنة "معسكر فراي" بقسنطينة حيث عرف خلال هذه الخدمة أسوء الاهانات والاعمال الشاقة الملعونة على يد القائد العسكري، حيث اخذ لون الكراهية المستعمر من خلال هذه الخدمة أولا ثم من خلال لغته التي أصبحت أكثر تجردا وخشونة[1] لأنه اكتشف أنّ المستعمر قد جرده من لغته وتراته الثقافي غير أرضه التي سلبها بطريقة بشعة.

ولقد كان مالك حداد يحاول إظهار موقفه من الحرب، ويبدو أنه مثّل الثورة التحريرية من خلال إشكالية الهوية التي سعى المستعمر لطمسها من خلال إستراتيجية التعليم باللغة الفرنسية لتنشئة جيل جديد يكون لسانه فرنسيا ويميل بذلك للهوية الفرنسية، لذلك كان شديد الوطأة على المستعمر الفرنسي الذي جرّد الشعب من هويته.

فحداد رأي أن المستعمر استعمل سلاحين لاختراق الوحدة الروحية اللسانية للجزائري، فأولا اعتمدوا سلاح تعميم اللغة الفرنسية بالقوة كلغة أولى، والعربية لغة ثانية إلى أن تتلاشي، أما السلاح الثاني الذي اعتبره أخبث وافتك، هي غسل ادمغة الجزائريين من خلال تجنيد فريق من العلماء الفرنسيين، وجعلهم في الحاشية العلمية للسلطة الفرنسية في الجزائر، حيث عملوا على جعل الجزائريين يتصورن أنَّ العربية لغة مخالفة لتطور ومخالفة للعلم ولا تصلح إلا للشعائر الدينية وأنَّ اللغة الفرنسية هي لغة علم.[2]

[1] سعاد محمد خضر: الادب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، د. ت، ص 127

[2] العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر، ج 1، منشورات اتحاد الكتاب العربي، 1999، ص 73.

فمن خلال ما سبق اطلع حداد على النوايا وخطورة مساعي المستعمر التي تهدف إلى إنجاز مشروع ثقافي خطير في الجزائر وهو فرنستها، والشيء الذي جعل مالك حداد يؤمن أنّ الحرية لا تأتي من فراغ وإنّما في منحدرات الأوراس وكل ساحات القتال، فلا يمكن أن تتحقق الحرية إلا بثورة عظيمة، وحين سئل حداد عن ثورة نوفمبر قال: "لقد جددنا بها معنى كلمة إنسان لأنها قامت لتعيد للجزائري كرامته، واحترامه لذاته، وحقه في عيش حياة الأمان والاستقرار، واسترجاع القيم التي انتزعها المحتل من قاموس الجزائريين".[1]

موقف حداد من اللغة الفرنسية:

إنّ أكبر مظاهر الاستعمار التي هي في نظر حداد بغض النظر عن فتك الأرض وهتك العرض الغزو الثقافي، ومشروع فرنسا الفكري التي حاولت من خلاله طمس هوية ومرجعية الجزائريين بما يتعلق باللغة والعقيدة، ولعل ما عاناه مالك حداد وكما ظهر في رواية الانطباع من نيّة المستدمر الفرنسي جسد تلك المظاهر الاستعمارية التي سعت فرنسا بكل قوتها لتجريد الشعب الجزائري من هويته ولغته ودينه، ولعّل هذا من أكبر مظاهر الاستعمار.

إنّ هذه اللغة التي اتخذها الجزائريون أداة للمقاومة عدوها غنيمة حرب ما لبثت أنْ تحولت لدى بعض الكتاب إلى نفي لغتهم الأم، كما عبر مالك حداد في مقولته: "سنقول لأولادنا الذين ذاقوا اليّتم ألف

[1] نوال بن صالح: الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية وثورة التحرير صراع اللغة والهوية، مجلة المخبر ع 7 ، 2011، ص 222.

مرة ستنجبون أطفالا لا يعرفون أباءهم".[1]، فهذا الجو الثقافي الأدبي الذي يسوده الصراع والتمزق وشكلت اللغة الفرنسية سجنا له، ووقفت حاجزا بينه وبين بني جلدته ممن لا يتقنونها، واعتبرها منفاه واعتزلها غداة الاستقلال ولعل أهم مقولة تؤكد إعتزازه بقوميته قوله: نحن نكتب الفرنسي، ولا نكتب بالفرنسية، ويرى الأدباء الناطقون بالفرنسية بأنهم عرب، وبأن أدبهم عربي كقول مالك حداد: "نحن نكتب بلغة فرنسية لا بجنسية فرنسية" ويقول مراد بوربون: "أنَّ اللغة الفرنسية ليست ملكا خاصا للفرنسيين، وليس سبيلها سبيل الملكية الخاصة، انما اي لغة تكون ملكا لمن يسيطر عليها ويطوعها للخلق الأدبي، ويتعز بها عن حقيقة ذاته القومية.[2]

ويرى مالك حداد أنّ الكاتب إنسان عادي، لا ينبغي تحميله ما يفوق طاقاته، فهو ليس صانعا للتاريخ، بل شاهدا عليه، لا يمتلك القدرة على تغيره بشيء، ولكنه يثمن عمل الكتابة في واقعه، فيربط أهمية القلم الذي يحمله بأهمية الرشاش، أو مقبض المحراث.[3]

ورغم التزام مالك حداد بالقضية الجزائرية ودفاعه عن اللغة العربية، فهو دائم الإحساس بالنقص، لأنه يفعل ذلك بلسان فرنسي قاده إلى انقطاع التواصل مع بني جلدته من العرب عموما، والجزائريين

[1] ادريس بوذيبة: البنية والرواية في روايات الطاهر وطار، ط 1 ، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2000، ص 13

[2] جبور ام الخير: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية دراسة سوسيو نقدية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في النقد الادب، جامعة وهرن، 2011/2010، ص21.

[3] عايدة اديب بامية: تطور الادب القصصي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعة، 1982 ، ص 25.

خصوصا يقول: "إنّني معقود اللسان، أنا الذي أغني باللغة الفرنسية.. يجب أن تفهمين جيّد إذا ما كانت لغتي تثيرك، لقد أراد الاستعمار ذلك، لقد أراد الاستعمار أن يكون عندي هذا النقص".[1]

لقد كشف مقولات "مالك حداد" وموقفه من اللغة الفرنسية عن حالته النفسية ألم تأزمه، وعن مأساة يعيشها، فلسانه الفرنسي جعله يحس باستئصال ثقافي وغربة لغوية كما أراد التعبير عن ذاته الجزائرية، أو قضايا وطنه كما كشفت كتابات "مالك حداد" سواء في مختاراته نصوصا وأشعاره، وفي روايته عن إجلاء مقومات الهوية بمختلف أبعادها، فرغم أنّه كتب باللغة الفرنسية، إلا أنّ المضمون يكشف عن ذاته وانتماءه للجزائر.[2]

لقد عبر مالك حداد عن شعوره بالمنفى من خلال روايته وهو يكتب باللغة الفرنسية وعن عجزه عن التعبير باللغة العربية والذي كان بسبب الوجود الفرنسي، وعلى الرغم من أنه "كان يتقن اللغة الفرنسية إتقانا جيدا، ولكنها كلغة لم تطغ على مشاعره، أو تسيطر على وعيه وتفكيره كما حدث للبعض، بل كان ينظر إليها باعتبارها أداة يعبر بها عن فكره، وتجاربه، ومشاعره، كان رحمه الله إنسانا وطنيا مخلصا".[3]

فالجزائري ليس بإمكانه التعبير عن هويته الوطنية بلغة غير لغته الأم، إلا أنه استخدم اللغة الفرنسية مضطرا للحديث عن ذاته، ويؤكد مالك حداد ذلك في قوله: " كان علينا وقد حرمنا الاستعمار

1

[2] حبيب فاطمة الزهراء: ترجمة العناصر الثقافية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، رواية بماذا تحلم الذئاب لياسمينة خضرا دراسة تطبيقية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، الترجمة، جامعة احمد بن بلة، وهران، 2015، 2016 ، ص 33

[3] احمد منور: الادب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ط 1، ديوان المطبوعات الجامعة، الجزائر، 2007، ص 109- 110

الفرنسي من لغتنا الأم، أن نستخدم اللغة الفرنسية وهي لا شك رائعة لكنها ليست لغة أجدادنا، الأمر الذي حملنا على أن نوجد انسجاما وتنسيقا بين عبقريتنا القومية، وبين أداة لغوية أجنبية كان لابد من استخدامها".[1]

2. مظاهر المقاومة في رواية الانطباع:

عمل الاستعمار الفرنسي عمى طمس شخصية الإنسان الجزائري وهويته، فكان الأدباء الجزائريون بالمرصاد للدفاع عن هويتيهم وأرضهم وحث الشعب على النهوض للتحرر من قيود المستعمر، ومالك حداد من هؤلاء الروائيين الذين دافعوا عن وطنهم والتزموا بقضايا شعبهم وكتبوا وعبروا عن الثّورة التّحريرية والمقاومة الجزائرية، وفي هذا المبحث سنحاول تسليط الضوء على الكشف عن مظاهر المقاومة في روايات مالك حداد عامة ورواية الانطباع خاصة، وذلك بإبراز مدى التزموا بالشخصية الوطنية، وايمانه بالمستقبل ودعوته إلى الجياد.

أ. التمسك بالشخصية الوطنية:

تمثل شخصية "خالد بن طوبال" في رواية " ليس في رصيف الأزهار من يجيب" الرجل الجزائري المقاوم الّذي التزم بمبادئه، وكان له وعي فكري وسياسي وكان وطنيا مناضلا "خالد بن طوبال" لم يكن وفي

[1] مرجع نفسه، ص 112.

إلا لطفولته. يروى عنه أنه كان وطنيا...، كان جزائريا لأنه عرف نفسه جزائريا، وكان جزائريا لأنه كان جزائريا."[1]

كان شاعرا يدافع عن وطنه بقلمه ورغم نفيه واغترابه، عبر "خالد" عن ارتباطه وتعلقه بوطنه وانتمائه إليه، كما نلحظ تمسكه بدينه وعاداته ووفائه لزوجته، فرغم كل المضايقات والإغراءات التي أتته زوجة صديقه؛ قابلها بالرفض محترما بذلك صديقه وزوجته. "خالد" كان شريفًا في أفكاره ومبادئه ورأيه، وكان رفيقه الوحيد في غربته هو حبه لزوجته فكلما ضاقت الأمور عليه؛ يتذكرها وهي دائمًا أمام مرأى عينيه

لم تمثل شخصية "خالد" نفسه فقط بل مثلت كل الجزائريين الذين اغتربوا عن وطنهم الجزائر، ورغم كل الإغراءات والحياة الهادئة التي يعيشونها إلا أنهم أصروا على الدفاع عن وطنهم والعودة إليه وتحريره، وأملهم في رؤية جزائر حرّة لا تأتي إلا برفع السلاح في وجه العدو.

يؤكد مالك على وطنيته في رواية "الانطباع الأخير" بقوله: "لا أدري إن كنت وطنيا ما أعرفه، وأعرفه جيدًا أني جزائري بل إني أخاف أن أكون قد أصبحت شيئا آخر..."[2] كل ما يعرفه سعيد أنه جزائري ويخاف من فقدان هذه الهوية بسبب حبه لفتاة فرنسية، لكنه يبقى متمسكًا بجزائريته.

ب.الالتزام بالإيمان والأمل بالمستقبل:

1

[2]نور سلمان: الادب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ط 1، دار العلم للملايين، بيروت، 1981، ص 458

لمالك حداد نظرة مشرقة على مستقبل الجزائر وأن الثورة التحريرية لا بد أن تنتصر "ستنتهي الحرب، سيجد النمل ونبات الزّعتر مكانهم في جدول توقيت الإنسان، سيتكلم البارود من أجل عيد الأضحى، سيحمل الأطفال البيض الملطخ بالألوان في شوارع قسنطينة وفي الشوارع الأخرى، في المخابر ستبقى الأفران مشتعلة إلى ساعة متأخرة من الليل، ستصبح مليكة جميلة، إلهي... كم ستصبح جميلة."[1] له نظرة تفاؤل على مستقبل الجزائر ومصيرها الذي سيتحرر من خلال الثّورة والمقاومة المباركة.

2. مظاهر المقاومة في الرواية:

أ. تجليات الصمود والانتصار:

دعا الروائي مالك حداد إلى ضرورة الثّورة في وجه المستعمر وهذا ما تجسد في رواياته المدروسة في البحث.

كان خالد يتألم على حال بلبده وعلى الأوضاع التي يعيشها الجزائريون من تعذيب وقتل وسجن، فدعا إلى الثّورة ومحاربة العدو، "سيأتي ال زمن الذي ينبغي أن نحتفي فيه بنصر هؤلاء الجنود الذين لم يكونوا عسكريين نظاميين، لقد ناد خالد بن طوبال بالحرب وهو سببا كالجراح الحقيقي الذي ينفر من

[1] مالك حداد، الانطباع الأخير، المصدر السابق، ص 89.

العمليات ذات الخطورة البالغة، ومع ذلك لم يكن من حل آخر، فالقوة لا تفهم إلا القوة."[1] وما أخذ بالقوة لا يسترجع إلا بالقوة، وهذا ما رآه خالد حلا لاسترجاع الوطن.

خالد كانت لو نظرة حب وافتخار للجزائريين ويقول: "الجزائري لا يموت أبدًا" فهو صامد رغم كل المواقف والصعاب وسيحمي وطنه بكل قوته في رواية الانطباع الأخير يمثل الجسر جزءً من سعيد، وحين بدأ العدو في استخدامه لم تّخريب والغزو، وجب هدم الجسر "لن تمر الدّبابات على جسر سعيد"[2] فبتحطيم الجسر يكون سعيد قد ساند الثّورة الجزائرية، فبالرغم من أنّ الجسر كان سببا في نشاط المدينة إلا أنّ التّضحية به كانت استشهادا لأجل الوطن.

يتحدث الروائي عن ثورة نوفمبر وما أحدثته من تغيير في الجزائر "السّاعة الّتي نعيدها إلى أول يوم من نوفمبر، هذا الشهر الذي غير توقيت فصل الشّتاء إلى الأبد. الساعة التي تحدد الوقت في عرس الموتى، في ولادة الحقائق، الساعة التي تعرف في أي ساعة قتل هذا الجزائري أو ذاك..."[3]، ليبين كذلك أنّ ميلاد وتاريخ الجزائر كان مع ثورة نوفمبر" في حين أنّ الجزائري ابتدأ الحساب في أول يوم من الشهر الحادي عشر من سنة ألف وتسع مئة وأربعة وخمسين قبل هذا كانت مسألة جبر.

[1] الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير صراع اللغة والهوية، نوال بن صالح (مجلة المخبّر)، العدد السابع 2011، جامعة محمد خيضر بسكرة، ص 551

[2] مالك حداد، الانطباع الأخير، المصدر السابق، ص 90

[3] مرجع نفسه، ص 91

"انتهت الكتابة بالحروف"[1] هنا يثبت الراوي على القيام بالثّورة والتّغيير، فما كان قبل نوفمبر غير حسابات وتعقيدات وكلاما لم يأتي بنتيجة، إلا مع قيام الثّورة وطرد المستعمر والاعتزاز بالنّفس، هنا إبراز لقيام ثورة مجيدة لبناء الجزائر.

يثبت سعيد على إرادته وعزيمته في الكفاح، يقول: "كان جيل سعيد جيل صانعي الجسور، جسور الإرادة القوية."[2] فجيل نوفمبر كان يريد الحرية والتّضحية في سبيل الوطن والثّبات في قرارته، فالحرية وجب أخذها من المحتل فكان لا بد من الاستيقاظ.

صور لنا مالك حداد في رواياته المعاناة التي كان يتلقاها الجزائريون وبشاعة فرنسا، يقول الراوي: "في أسفل الطريق تسمع الدبابات تتحدث خبط عشواء تطلق النار بلا تبصر، بلا قناعة، لم تشاهد الطائرة أي شيء بعد لم تعثر على الطريدة بعد على المنظار أن يبحث على جهاز الراديو أن يعيل صبره توارت أكمة في الجية اليمنى. نثرت القذيفة كل شيء في الفضاء. لحسن الحظ لم يكن هناك أحد."[3] كان المستعمر الفرنسي يستخدم مختلف آليات الدمار بوحشية على المجاهدين.

مالك حداد ناد إلى الثّورة ودعا الجميع إلى المشاركة فيها حتى الصخور والممرات بقوله: "أيّتها الصّخور كوني صديقة الذين ليست لهم طائرات ودبابات. أيها الليل! لا تتأخر...، الممرات تحارب.

[1] مرجع نفسه، ص 92.

[2] المرجع نفسه، ص94

[3] محمد الطمار: تاريخ الادب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1998، ص 423.

الينابيع والسّحب تحارب. إنها حرب ذات حدود مبهمة بألف وألف مركز ثقل."[1] الجميع يبحث عن الحرية فعلى الجميع المقاومة ورفع السلاح في وجه العدو مهما كانت الوسائل.

عرف عن مالك حداد أنّ دفاعه عن الثورة كان مختلف عن الأدباء الآخرين، فقد رسم جو الحرب في رواياته بطريقة منفردة عن غيره حيث ركّز على جو القلق والتّوتر الّذي يطبع الحياة العامة أكثر مما ركّز على الأحداث والوقائع[2]، وهذا ما لاحظناه في شخصياته الروائية، بهذا يكون مالك حداد روائي تميز عن غيره في الكتابة لكنه يتفق معهم في الالتزام بالّثورة والتّشبث بها. تحدث مالك حداد عن أحداث 8 ماي 1945م في روايتي (الانطباع الأخير ليس في رصيف– الأزهار من يجيب)، فهذا اليوم كان يومًا مشهودًا للجزائريين، فقد تركت هذه الأحداث والمجازر الّتي وقعت– في سطيف وخراطة وقالمة وأخذت معها عشرات الآلاف من الضّحايا الجزائريين جرحًا كبيرا في نفوس– وقلوب الجزائريين، فحركت مشاعر الأدباء فكتبوا وعبروا وتأسفوا عن هذه الأحداث وكشفوا بشاعة المستعمر، ومن هنا يظهر مدى الوعي الوطني للروائي والتزامه الثوري،

تتنوع فيه الأزهار والورود والأمطار، لكن عند الجزائريين فيه شهر اليأس والعذاب والموت ففيه قمع المستعمر بوحشية المتظاهرين الذين خرجوا من أجل المطالبة بالحرية والعدالة.

4. تمظهرات صورة الأنا والآخر في الرواية:

[1] المرجع نفسه، ص 98.

[2] الهوية الوطنية، أحمد بن نعمان، ص 29، وينظر، مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الكُفراء، أحمد بن نعمان ص 233

إنّ رّواية **الانطباع الأخير** في خلاصة أحداثها بسيطة، تروي مسار إنسان عايش– الثّورة التّحريرية في الجزائر، واختار صفّ الثّورة، ومات في سبيل وطنه في النّهاية، ورغم هذه البساطة الوهمية الّتي يمكن أن تقدّمها لنا أوّل قراءة، إلاّ أنّها تحمل بين ثناياها معاني إنسانية عميقة نستشعر من بين جوانبها تَشَتُّتًا للهوية، حاول البطل(سعيد) لَمْلَمَتهَا للعثور على نفسه، وتلك المسيرة لم تكن سهلة، إذ أنّ المحيط الّذي وُلد فيه لم يساعده على الاختيار بسهولة، كما أنّ متناقضات الأشخاص المحيطين به (أفراد العائلة، والأصدقاء) كذلك ساهمت في تردّده، وهو أثناء ذلك لم يستكمل مداركه. لقد اتّسمت الرّواية عند بدايتها بنوع من السّكون، الّذي ميّز الفترة الّتي كان فيها البطل يعيش حياة هادئة كمواطن فرنسي من أصل عربي، مقبولا فرنسيًا، وذا مكانة محترمة، ثمّ تعرف الأحداث تطوّراً حينما بدأ التّساؤل حول التّواجد الدّخيل على أرض الوطن، وهنا يبدأ الصّراع الّذي مارسه الوطن الأصل والوطن الدّخيل.

مفهوم الأنا والآخر:

بعيدا عن التّعريفات اللغويّة للأنا والآخر والمستمدة من مجالات فلسفيّة واجتماعيّة ونفسيّة وتاريخيّة، قام الباحثون بصياغتها في قوالب لغويّة تتفق في أغلبها في تعريف الأنا على أنه: "المدرك من حيث أنّ وحدته وهويته شرطان ضروريان يتضمنهما التركيب المختلف الذي في الحدس، وارتباط التصورات في الذهن "والأنا" المتعالي هو الحقيقة الثابتة التي تعدّ أساسا للأحوال والمتغيّرات النفسية"[1]، أي أنّه إحساس الفرد بتفرده بتكوينه الفيزيولوجي المميز وبسماته الشخصية المتفرّدة، وباسمه ولقبه وهويته الوطنيّة التي يحدّدها انتماؤه الجغرافي والعرقي والدّيني، ثم بعد أن يدرك هذا الفرد تميزه و"تدرك الذّات اختلافها تشرع في تحديد ما يشابهها وما يختلف عنها، وتقوم تلك العمليّة على الاختزال من خلال التركيز على بعض السمات ومن ثم تعميمها، لتصبح معيارا في تحديد من ينتمي إلى مجتمع الذّات ومن لا ينتمي إليه، ووعي الذّات لخصوصيتها يفضي إلى وعيها بالاختلاف عن الآخر"[2]. وبذلك

[1] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 2، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني، 1982، ص: 140.

[2] إبراهيم خليل الشبلي، الذات والآخر في الرّواية السّوريّة، دمشق، سوريا، دار فضاءات، 2009، ص: 15.

تحدد الأنا ذاتها من خلال الصّفات التي تجمعها بالذوات المحيطة بها، فيتشكل نموذج واضح للأنا الجمعي.

كما أنّ الآخر المقابل للأنا، الذي يشكل قوة جذب مساويّة لها في الشدّة معاكسة لها في الاتجاه، وهو كل شخص متمايز عنها، بينه وبينها اختلاف جوهري ما يجعلهما متقابلين.

يعرف الآخر من الناحية اللغوية على أنّه المختلف عن الموجود عندك أو الشيء الإضافي للشيء الموجود لديك، فقد جاء في لسان العرب: **"أخر بمعنى غير، كقولك رجل آخر، وثوب آخر"**[1]، يتضح من التعريف اللغوي للآخر أنّه: لم يكن يحمل في بدايته معنى الا أنّه بتطوّر الزّمن توسع دلاليا ليحمل معنى الاختلاف والتّمايز، فأصبح الآخر هو "أنا أخرى تروم إنجاز مهام مماثلة (...) ويختلف مفهوم الآخر باختلاف زاوية التعاطي معه"[2].

اختلفت طرق التّمييز بين الأنا والآخر، بدءًا من اللغة التي جعلها **أرسطو** في عصره سمة مميزة للمتكلمين بها، فأعلى من شأن اللغة اليونانيّة وجعل المتكلمين بغيرها بربرا يهمهمون بلغة لا تفهم، ثم أصبحت الثقافة معيارا للتمييز بين الأنا والآخر، إضافة إلى معايير مختلفة تتجدّد في كل عصر حسب متطلباته، وصولا إلى التّمييز بين الأنا العربي والأنا الغربي، لكن أشهرها وأكثرها إثارة للتساؤلات المعرفيّة هو جدليّة العلاقة بين الأنا المستعمر والآخر المستعمر، خاصّة في المجال الرّوائي.

العلاقة بين الأنا المستعمَر والآخر المستعمِر: بدأت علاقة الأنا المستَعمَر بالآخر المستَعمِّر منذ بداية إحتلال الدّول القويّة للدول الأخرى الأقل قوة فكانت العلاقة بينهما –في الجزائر تحديدا– في البداية علاقة صراع، يحاول كل طرف فيها إثبات سيطرة الأنا وإخضاع الآخر ثم استقرت العلاقة نسبيا من خلال ظهور الدّعوات الاندماجيّة، لتعود العلاقة بينهما بعد ذلك إلى مسارها الطبيعي ألا وهو الصّراع من أجل تحرير الأنا والتخلص من الآخر، إذ عادة ما تقوم العلاقات بين الحضارات المختلفة

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة (أ، خ، ر)، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1999.

[2] نجيب الحصادي، جدليّة الأنا والآخر، القاهرة، مصر، الدّار الدّوليّة للنشر والتّوزيع 1997، ص: 07.

"على أساس الصراع، وأنّ الحسم في تلك القضيّة لا يتم إلا بانتصار طرف على الآخر، واخضاعه بشتى الوسائل وهذا من شأنه أن يرسّخ الصّور السّلبيّة والمشوهة عن الآخر"[1] لذلك لطالما حمل الجزائريون في أنفسهم عداء كبيرا للآخر الفرنسي الذي ارتسمت صورته في الأذهان في صورة المستعمر مما جعلهم يعتقدون أن نهضتهم لن تتحقق إلا بتأخر الآخر عن ركب الحضارة، إنّها **"بداية الرّيادة لشعور الأنا، شعوب العالم الثالث، إنّه شعور يبلور وعيا إنسانيا جديدا وناشئا يقوم على التنمية والتحرر والوحدة والعدالة الاجتماعيّة وتأكيد الهويّة، قهرا للتخلف والاستعمار"**[2].

هذا العداء للآخر المستعمِر تارة، والانبهار به تارة أخرى تجسد في الكثير من الرّوايات الجزائرية خاصّة تلك المكتوبة بلغة الآخر المحتل التي تحمل هاجسا مزدوجا، الهاجس الأوّل هو نقل صورة الآخر وعلاقة الأنا معه بصورة موضوعيّة والهاجس الثاني هو التّناقض في الكتابة بلغة الآخر لاستعمالها سلاحا ضده؛ إذ يمثل الآخر في الرواية **"تحديا كبيرا للذات، فقد حاول بشتى الوسائل أن يطمس هويتها ويجعل منها تابعا يسهم في ضمان مصالحه، وقد يأخذ حضور الآخر أشكالا مختلفة، فقد يحضر بوصفه غازيا أو مبشرا أو مستعمرا، ومهما كانت صفة حضوره، فإنّه يستثمر في الخطاب الرّوائي العربي، ليقدم صورة لشخصيّة الآخر"**[3]، كما قد يحضر –كما في رواية **مالك حداد** المعنونة ب: **الانطباع الأخير**–في الصّور النّمطيّة السالفة الذكر والأهم من ذلك صورة الآخر المرتبط عاطفيا بالأنا، مثل خال سعيد المتزوج من سيمون الفتاة الفرنسيّة والتي استقر معها في فرنسا، وصورة لوسيا حبيبة سعيد التي لم يستطع هو الذّهاب معها إلى فرنسا، ولا تمكنت هي من البقاء معه في الجزائر.

انطباعية الجسر المتخيل بين الأنا والآخر:

[1] إبراهيم خليل الشبلي، الذات والآخر في الرّواية السّوريّة، المرجع السابق، ص 32.

[2] أحمد عبد الحليم عطيّة، جدليّة الأنا والآخر، القاهرة، مصر، مكتبة مدبولي، 1997، ص 42.

[3] مالك حداد، الانطباع الأخير، ت: السّعيد بوطاجين، الجزائر، منشورات الاختلاف، 1989، ص 05.

بدأ مالك حداد روايته بالحديث عن جسر متخيل يربط بين عالمين مختلفين، يحاول فيه الأوّل السّيطرة على الثاني، ويسعى جاهدا للتحكم فيه من خلال هذا الجسر الذي أقامه بينهما، هذا الجسر الذي ظل مالك حداد يردّد أن: "**يجب تخريبه** (...) **يجب تخريبه**[1]".

فما هي تمثلات هذا الجسر الذي يتحدث عنه مالك حداد في روايته؟

تتحدّث الرّواية عن فرد جزائري اسمه سعيد يعمل مهندسا معماريا وقع في حب فتاة فرنسيّة اسمها لوسيا حاولت جذبه إلى عالمها الفرنس ي فلم تستطع ذلك، وعندما قرّرت العودة إلى بلدها ماتت برصاصة طائشة وهي في طريقها إلى المطار تاركة سعيدا وراءها حزينا جدا، حزينًا على فراقها الأبدي من جهة أولى، وحزينًا من جهة أخرى، على الحالة التي يعيشها بين التردد والخوف من اتخاذ قرار حاسم بترك الجسر بين الأنا المستعمر والآخر المستعمر مقاما أو أنه يتوجب عليه هدمه، وتوصّل في الأخير إلى أنّ هذا مآله الزوال من خلال الثورة التي أبت إلا أن يكون واحد من شهدائها الذين التّحقوا بالرّكب وإن كان في وقت متأخر جدا.

إنّ التّحليل المبدئي لعنوان الرّواية بين لنا أنّ **مالك حداد** متأثر في روايته بالمدرسة الانطباعية التي تجلت في أولى بشائرها من العنوان الذي حمل اسمها "الانطباع" مضافا إليه لفظ "**الأخير**"، كما نجدها مجسدة في الزّوايا المضيئة والمظلمة من النّفس الإنسانيّة المنقسمة إلى نور وظلام، يسهم الضّوء وحده في تسليط حزمة أشعة على أي منهما يريد، في لوحة رسمها الرّوائي بدقة متناهيّة، والانطباعيّة هي اتجاه فنّي حداثي ظهر في الفنّ ثم انتقل إلى الرّواية ليؤثر فيها، وكانت رواية **مالك حدّاد** من بين هذه الرّوايات.

شخصية الآخر الفرنسي في رواية الانطباع الأخير لمالك حداد:

[1] محمود قاسم، الآدب العربي المكتوب باللغة الفرنسيّة، الجيزة، مصر، وكالة ناشرون د.ت، ص 207.

مالك حداد جزائري اشتهر بالكتابة باللغة الفرنسيّة، صدر الدّيوان الأوّل للكاتب في عام 1956 تحت عنوان الشقاء في خطر، ثم صدرت روايته الأولى: "الانطباع الأخير، وهي عن النضال الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، ثم صدرت روايته الثانية: سأهبك غزالة عام 1959، والتّلميذ والدرس عام 1960، (...) وكانت روايته الأخيرة باسم: رصيف الأزهار لا يجيب عام 1960"[1]، ثم توقف مالك حداد عن الكتابة الرّوائيّة بعد ذلك لأنّه لم يعد يستطيع الكتابة بلغة الآخر التي يحسّ بالغربة داخلها، ولا يستطيع الكتابة بلغة الأنا التي لا يتقنها، ولا يمكنه التّعبير عن أحاسيسه من خلالها.

إنّ حاله شبيهة بحال الكثير من الكتاب الذين أجبروا على الكتابة بلغة الآخر الذي حرمهم من تعلم لغتهم، فكانت تلك اللغة بمثابة سجن كبير لا يمكنهم الخروج منه ولا التّعايش مع قضبانه القاسيّة، إنّهم بمثابة مهاجرين **"إلى لغة وطن لا يتكلم بها وطنهم وهم واقعون في ازدواجيّة ثقافيّة واضحة، ثقافة البلاد التي ولدوا فيها وانتموا إليها، وثقافة البلد الذي وجدوا أنفسهم يتكلمون لغته أو يختارونه مهجرا"**[2].

الأمر الذي جعل مالك حداد يرفض الكتابة بلغة الآخر، واختار بدلا عنها الكتابة الصّحفيّة؛ إذ بعد عودته من منفاه إلى أرض الوطن، استقر في مدينة قسنطينة وأشرف فيها على الصفحة الثقافية لجريدة النصر ثم انتقل إلى العاصمة ليشغل منصب مستشار، ثم مديرا للآداب، بوزارة الإعلام والثقافة، أسّس سنة 1969 مجلة آمال[3].

هذا الرّفض للآخر من قبل أنا الكاتب الجزائريّة جعله شخصيّة حاضرة في كل رواياته التي كتبها، فكان تارة يتقبله إن كان حبيبا مقربا، أو مجرّد شخصيّة مسالمة أوجدتها ظروف معينة في بلاده، وتارة أخرى يرفضه إن كان معتديا يحاول أخذ شيء ما منه أو اضطهاده.

[1] محمود قاسم، الآدب العربي المكتوب باللغة الفرنسيّة، الجيزة، مصر، وكالة ناشرون د.ت، ص: 207.
[2] محمود قاسم، الآدب العربي المكتوب باللغة الفرنسيّة، المرجع السابق، ص: 07.
[3] المرجع نفسه، ص 210.

شخصية الآخر المنفرة: هناك عوامل كثيرة فكريّة وثقافيّة واجتماعيّة وقوميّة تؤسّس للعلاقة بين الأنا والآخر وتسهم تلك العوامل في رسم صورة أو صور له تبدو أحيانا متناقضة، ويرجع ذلك فيما يرجع إلى اللحظة التاريخية التي تفرض على الذّات أن تحدد طبيعة تلك العلاقة وتوجه مسارها[1]. فالأنا التي تعرضت للظلم والقهر من قبل الآخر، لن تستطيع بسهولة التّعامل مع هذا الآخر وتقبله، لا في الحياة الواقعيّة ولا حتى في الحياة الأدبيّة؛ لذلك نجد **مالك حداد** في روايته **الانطباع الأخير** قدم شخصيّة الأنا المقبولة من قبل الآخر، لكنّ تركيزه الأكبر كان منصبا على صورة الآخر المرفوض من قبل الأنا، وهي الحالة الطبيعية المتقبلة.

شخصيّة سيمون: سيمون هي زوجة إيدير الفرنسيّة، التي تزوجته وجعلته يهجر بلده ويسافر معها إلى فرنسا، ممّا جعل أمّه تكرهها وتحقد عليها، وأصبحت بذلك تمثّل شخصية الآخر المرفوض من قبل الأنا، إلى درجة أصبحت حماتها "أمّا مسعودة" معها تصفها ب: الخنزة، والخنزة هي وصف لم يستطع مالك حداد ترجمته إلى اللغة الفرنسيّة فأورده بلفظه العربي، وهذه الكلمة كما وصفها الكاتب: "قد تعني القذرة أو مثيرة القيء، تلك التي لا تغتسل، تلك التي ليست نظيفة، في الواقع، تلك التي ليست من عندنا، وبوضوح تلك التي ليست الكنّة التي كنت سأختارها ... الأجنبية"[2].

هي شخصيّة فرنسيّة مرفوضة من قبل حماتها التي طالما رددت، قائلة عنها: **"هذه الخنزة سرقت إبني؟"**[3]، لكنّها في أخر لحظة من حياتها بنت جسرا بينها وبين هذه الأجنبيّة فقط لأنّها تحمل في أحشائها طفلا هو حفيد للعائلة ومع ذلك كانت سيمون تحس نفسها دوما مثل: 'شعره في حساء' -على حد تعبير الكاتب-أي أنّها كانت دوما داخل عائلة إيدير تشعر أنّها مثل شيء منفر يثير الانزعاج.

[1] إبراهيم خليل الشبلي، الذات والآخر في الرّواية السّوريّة، المرجع السابق، ص 111.
[2] مالك حداد، الانطباع الأخير، المصدر السابق، ص: 28.
[3] المرجع نفسه، ص: 28.

ستظل سيمون ومثيلاتها من الفرنسيّات اللواتي يوصفن من قبل الأمّهات المتحسّرات على أبنائهن عادة بأنّهن سارقات، يعرفن كيف يخطفن أبناءهن على غفلة منهن، ويسرقنهم من حضنهن الدّافئ داخل الوطن، إلى غربة باردة يجمد صقيعها عقل وقلب هؤلاء الأبناء، ليجعل منهم مجرّد تابعين فاقدين لروح الانتماء للوطن.

هذا النوع من الشخصيات يسمّى في الاصطلاح السّردي المعاصر "شخصية الآخر المنفرة، والتي لها دور مهم في تشكيل العالم الرّوائي، فوجودها ضروري لإشعال الصّراع؛ لأنّها تمتلك سلطة ماديّة تعيق تحقيق الأهداف (...)؛ ذلك أنّها تقف في الطّرف المقابل للبطل، وتسهم في تطور الأحداث وإضاءة الشخصيات"[1]، وهذا ما قامت به سيمون التي منحت إيدير فرصة حياة مرفهة بفضل ما تملكه من سلطة ماديّة جعلته يهجر بلده، ممّا منع أمّه من تحقيق هدفها في جعله يبقى قريبا منها.

شخصية الآخر الجاذبة: لوسيا هي فتاة فرنسيّة تعمل مدرّسة بمدرسة جزائرية وهي حبيبة سعيد الجميلة التي قضى معها أجمل أيام حياته، لكنّها تركته بعد أن اتخذت قرار العودة إلى فرنسا بإرادتها، فقد أحست أنّ هذه البلاد لا تناسبها للاستقرار فيها فهي رغم حبها الكبير لسعيد وتعلقها به، إلا أنّها لا تحب البقاء في بلده، لأنّها ببساطة "تحب سعيد، ولكنّها لا تحب بلد سعيد[2]".

تندرج شخصيّة سيمون ضمن ما يسمّى ب: شخصيّة الآخر وهي تحتل "مكانة مهمّة في الرّواية لما تمتلكه من سمات وعناصر تميزها عن سواها، وهي شخصيّة ذات فعاليّة في حركيّة الأحداث وتطورها ونموها، ويمنحها قدرة التأثير في غيرها، ويجعلها موضع اهتمام القارئ؛ إذ يتتبع تطورها ونموها ودورها في توجيه الأحداث"[3]، وهذا تحديدا ما تمثله شخصيّة لوسيا التي لا تحضر كثيرا في صفحات الرواية إلا ما كان في الصّفحات الأولى قبل أن تموت، لكن تأثيرها في حياة سعيد استمر إلى آخر صفحة من

[1] إبراهيم خليل الشبلي، الذات والآخر في الرّواية السّوريّة، المرجع السابق، ص: 150.
[2] مالك حداد، الانطباع الأخير، المصدر السابق، ص: 38.
[3] إبراهيم خليل الشبلي، الذات والآخر في الرّواية السّوريّة، المرجع السابق، ص: 150.

صفحات الرّواية؛ حيث كان دائما ما يذكرها، وبقيت حاضرة في كل صفحات حياته إلى أخر صفحة فيها، فقد كانت وستظل بالنسبة إليه:

"في ساعات الغسق الأزرق –لوسيا، لوسيا دائما.

لوسيا البعد الخامس، لوسيا الحب الهادئ والأكيد، لوسيا القارب ذو الألوان الصّخريّة المنقطة بالحصى الملساء"[1]، إنّها لوسيا الحبيبة المفقودة في الوطن المفقود.

كما سافر سعيد بعد فترة من وفاتها إلى مسقط رأسها في فرنسا، فزار قبرها وتحدّث إليها كثيرا كأنّها لازالتّ معه، واطمأنّ على أهلها وأحوالهم قبل أن يعود إلى الجزائر.

تتميز شخصية الآخر الجاذبة في الرّواية بأنّها عادة تكون لامرأة غربيّة، هي **"شابة تمتلك صفات جسديّة تتمثل بالجمال والجاذبيّة والسّحر، لتثير عواطف البطل ومشاعره"**[2]، فقد كانت لوسيا الجميلة المثيرة هي الرّابط القوي الذي دفع سعيد إلى الإبقاء على الجسر لكنّه بعد رحيلها قرر التّخلي عن هذا الجسر وهدمه. ظلّ كل ما في حياة سعيد يذكره بحبيبته التي فقدها في بلده الذي كانت تحاول الهرب منه مسافرة إلى بلدها، فرحلت إلى الآبد ولم يطق سعيد فراقها فلحقها في رحلة أبديّة لانهائيّة.

تمثلات صورة الأنا والآخر في رواية الإنطباع:

الجسر الأول: بين

أمّا مسعودة ⟷ سيمون

↓ ↓

الأنا الرافض — الآخر المرفوض

[1] مالك حداد، الانطباع الأخير، المصدر السابق، ص: 38.

[2] إبراهيم خليل الشبلي، الذات والآخر في الرّواية السّوريّة، المرجع السابق، ص: 149.

مّا مسعودة هي جدّة سعيد التي تزوج ابنها من الفتاة الفرنسيّة: سيمون، وكان في كل مرّة يعود فيها إلى الجزائر يحاول إقامة جسر من المودة وتقبل الأنا للآخر بين أمّه وزوجته، لكن أمّه لطالما منعت إقامة هذا الجسر، فكانت توص ي ابنها دوما قائلة:

"يا بني، لن نتزوج فرنسيّة أبدا (...) محال"[1]

لكنّها في أخر لحظات حياتها قرّرت أن تسمح بإقامة هذا الجسر بعدما أخبرها سعيد بأنّ **"سيمون تنتظر صبيا، حينها اضطربت العجوز قليلا، ولأوّل مرة تنظر في وجه كنتها (...) شدت يدها بيدها الطويلة الشاحبة التي تجري عليها الأوردة كالطّحالب وهدأت من جديد"**[2].

جعل هذا المولود الذّكر الذي لم يولد بعد، عجوزا عاشت كل حياتها رافضة للآخر، لا ترى فيه إلاّ صورة المستعمر المحتل، تتقبل كنّتها الفرنسيّة التي كانت تستغلّ فكرة أنّها لا تفهم العربيّة لتسبّها وتشتمها بأبشع الشتائم، قد تقبلتها لأنّها أصبحت كنّة حقيقيّة بعد أن تمكنّت من الحمل في صبي ذكر.

الجسر الثاني: بين

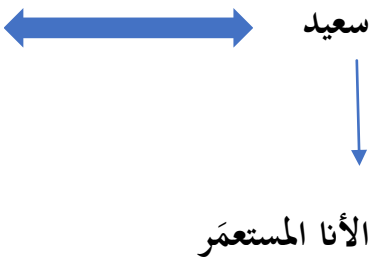

قام جسر متين من الحبّ والتّفاهم بين سعيد ولوسيا، لكنّه سرعان ما انهار لأنّ الطّرف الأقوى ممثّلا في لوسيا قرّر ترك الدّعامة الثّانية لهذا الجسر من أجل السّفر بعيدا بحثا عن ظروف حياتيّة أفضل، ممّا أدى إلى انهدام الجسر الذي لا يمكن له أن يقف إلاّ على دعامتين اثنتين.

[1] مالك حداد، الانطباع الأخير، المصدر السابق، ص: 38.

[2] إبراهيم خليل الشبلي، الذات والآخر في الرّواية السّوريّة، المرجع السابق، ص: 149.

إنّ انهدام الجسر المتخيل الذي كان قائما بين سعيد ولوسيا، والذي كان يربط بينهما في علاقة غير متكافئة، أدى إلى استفاقة سعيد من غفوته السّابقة وسعيه لإقامة جسر حقيقي دائم، ذي أعمدة إسمنتيّة متينة تربط بينه وبين قضيّة وطنه.

الجسر الثالث: بين

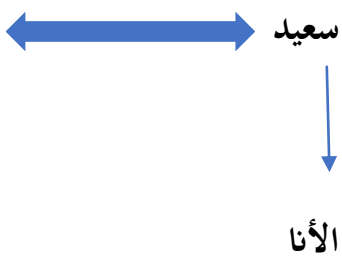

أدى انهدام الجسر الذي كان سعيد يقيمه بينه وبين لوسيا إلى رفع الغشاوة عن عينه واعترافه أخيرا بضرورة العودة إلى أصله وإقامة جسر حقيقي بينه وبين قضيّة وطنه التي كان يتناساها، فقد دقت السّاعة أخيرا.

"دقت الساعة (...) بالنسبة لسعيد كل شيء يتحدد، من الآن فصاعدا، بالعودة إلى أوّل نوفمبر من سنة ألف وتسعمائة وأربعة وخمسين؟[1].

نستشف مما سبق أنَّ الأدب كما هو معروف امتداد في الزمن يستلهم مادته من الأحداث التي يعايشها، ثم يعرضها لاحقا بعد هضمها إن صح التعبير، والثورات عموما من حيث هي حدث كبير لا تظهر أشكالها على المرآة الأدبية العاكسة إلا بعد طول تأمل واختمار للأفكار قبل أن تظهر التجسيدات المتنوعة، وحينما ننتقل إلى الحديث عن الثورة الجزائرية، وتجلياتها الأدبية فإننا بداية نلاحظ نقطة مثيرة للانتباه وهي أن التجسيد الروائي للثورة يناقض شبه القاعدة التي بدأنا بها، إذ أن التعبير عنها أثناء الثورة كان مرافقا لا تابعا لها، وذلك بارز في الأعمال الروائية ذات الأثر المستمر التي تناولتها، ووظفت لغة الآخر (المحتل) للمساهمة في نشرها وطنيا بين النخب الفرانكفونية

[1] مالك حداد، الانطباع الأخير، المصدر السابق، ص: 38.

خصوصا، وابلاغ صوتها إلى الأمم الأخرى عموما، ومهما يكن من أمر فإن الحديث عن الآخر، أما معناه (أي "الآخر") أثناء الثورة التحريرية كما عرضته الرواية الجزائرية أثناء تلك الحقبة فكان محددا سلفا من طرف السياق الثوري الذي أعطى له معناه، بالإضافة إلى معنى آخر سنتناوله بالتوازي، وهو معنى "الذات" التي سنلاحظ أنها تحمل دلالة معاكسة، بل ومعادية "للآخر" الذي سيظهر معها "واقعا" معيشا، وأدبا مقروءا.

إنَّ السياق الثوري قد عرض صورا للآخر أخذت اتجاهين اثنين، يمثله المحتل الفرنسي في صورته الأولى، ويمثل الاتجاه الثاني من ساند المحتل في مهمته، وشاركه جرائمه وعمل على بقائه، وهم الذين اصطلح على تسميتهم "بالحركى" (أو الخونة)، والذين تحولوا إلى "آخر" رغم اشتراكهم مع من يمثلون "الذات" في الوطن، واللغة والدين، ونقرأ معالمهم وآثارهم جلية في الروايات المكتوبة أثناء الثورة، وإذا حصرنا القراءة في الرواية التي اخترناها للمساءلة؛ نجد أن تجسد "الآخر" المحتل قد حدد في الشخصيات الفرنسية التي قدمت إلى الجزائر، وهيمنوا على قطاعات التعليم، والأراضي، والجيش، والإدارة من جهة، ومن جهة أخرى "الجزائريين" الذي دعموا وجود الاحتلال، وتعايشوا معه ولم يتمردوا عليه.

تجدر الإشارة إلى أن الشخصية الرئيسية التي اختارها الكاتب لروايته شخصية متعلمة تعليما متخصصا (الهندسة) في زمن التجهيل الممنهج من طرف الإدارة الفرنسية، وقد تم تقديم شخصية "سعيد" في صورة الباحث عن هويته المشتتة بين الأصل الجزائري، والارتباط بالدخيل الأجنبي في مسار متدرج (يمكن وصفه بالمسار العاطفي بسبب طغيان العاطفة) كثرت فيه التساؤلات حول الأنا والآخر، ودواعي تواجد الاثنين معا على أرض واحدة، وعن دواعي الصراع بينهما أيضا، وقد عرف هذا المسار العاطفي الخاص بالبطل تطوّراً تدريجيًا عبر النّص، بدأ التّعبير عنه بمرحلة تميّزت بالحيرة والقلق؛ فالبطل كان شبه ذائب في المجتمع الفرنسي، فوالده كان من قدامى المحاربين في الجيش الفرنسي، وهذا ما سمح له باحتلال موقع متوسط في المجتمع، وسمح له أيضا بارتياد المدارس، وإكمال دراسته إلى أن أصبح مهندسًا، وقبِلته الإدارة الفرنسية ليكون ضمن إطاراتها، لكن تُفاجئنا الصّفحة الأولى من الرّواية بجملة: (يجب تخريبه)، وتُعتبر هذه الجملة بمثابة الكلمة المفتاح أو الشّرارة الأولى الّتي

أعلنت عن بداية هذه المرحلة، وطولب فيها البطل بتقديم معلومات حول الجسر الّذي بناه واعتبره مفخرةً له، ولكن مساهمة ما بناه في قتل أناس ينتمي إليهم في الواقع جعله يدخل في متاهة من تساؤلات كثيرة، وتميّزت بالحيرة الّتي عبّر عنها البطل في مواقع متفرّقة.

الخاتمة

الخاتمة:

تعد الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية من أهم المحاور التي عرفها الأدب الجزائري الحديث والمعاصر، والأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية هو أدب جزائري محض، كتب باللغة الفرنسية من طرف كتاب جزائريين لأنه خلق من رحم الوطن واللغة الفرنسية هي مجرد وعاء يحمل أفكار الجزائري أجبرته الظروف على التعلم بلغة الآخر، كما منحت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية بعدا إنسانيا وأولوية للقضية الوطنية وللهوية الجزائرية، حيث اعتبرتها جزء لا يتجزأ من كيانها، مما يدل على أن الرواية الجزائرية ولدت حاملة لبذور الثورة المسلحة ومدافعة عن القيم الإنسانية، بالإضافة إلى أنها رسالة من الشعب الجزائري على الرغم من الرفض الذي تلقته من قبل بعض النقاد والدارسين.

كانت الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية المتنفس الوحيد للكتاب الجزائريين الذين كتبوا بغير لغتهم الأم للتعبير عن القضايا السياسية والاجتماعية والثقافية التي مر بها المجتمع الجزائري إبان فترة الاستعمار الفرنسي، فجعلوا من الرواية مرآة عاكسة لهذه الأوضاع المزرية التي عاشتها الجزائر آنذاك.

يعتبر مالك حداد من أبرز الكتاب الذين امتازت أعمالهم الأدبية بالانحياز إلى الثورة التحريرية، وقضية الانتماء ومسألة الهوية الوطنية استعمل مالك حداد اللغة الفرنسية للدفاع عن هويته وانتماء الجزائريين وإعادة الاعتبار لهم من خلال الوقوف في وجه المستعمر، لذلك فقد كانت رواية الانطباع الأخير من بين النماذج التي حملت في طياتها قضايا تنبع من رحم الواقع وصوت الأديب ومعاناة الشعب الجزائري بسبب الاستعمار الفرنسي الذي دائما ما عمل على طمس الهوية الوطنية.

كان مالك حداد مرتبطا بالواقع الجزائري وعايش تحولاته، وتعد نصوصه الأدبية مظهرا من مظاهر معاناته الثقافية جراء ثقافته الفرنسية واحتكاكه بالمجتمع الفرنسي دون أن ينتمي إليه.

قائمة المراجع

قائمة المراجع:

المصادر : رواية الإنطباع الأخير لمالك حداد

المراجع :

أولا: الكتب

1) المسدي، عبد الله.، الأسلوب والأسلوبية، ط.2، بيروت، الدار العربية، 1982.

2) إبراهيم خليل الشبلي، الذات والآخر في الرّواية السّوريّة، دمشق، سوريا، دار فضاءات، 2009.

3) ابن منظور، لسان العرب، مادة (أ، خ، ر)، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، 1999.

4) أبو القاسم، سعد الله.، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، ط.الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1984.

5) أحمد طالب الإبراهيمي: من الاستقلال إلى الثورة الثقافية، ط 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975

6) أحمد عبد الحليم عطيّة، جدليّة الأنا والآخر، القاهرة، مصر، مكتبة مدبولي، 1997، .

7) احمد منور: الادب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه، ط 1، ديوان المطبوعات الجامعة، الجزائر، 2007.

8) أحمد منور: الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، صدر عن وزارة الثقافة، بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية، 2007.

9) احمد منور: مس حر احمد رضا حوحو: دراسة أدبية تحليلية مقارنة، بحث الادب العربي، 1989 .

10) ادريس بوذيبة: البنية والرواية في روايات الطاهر وطار، ط 1 ، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2000

11) أمين الزاوي، صورة المثقف في الرواية المغاربية دار النشر راجحي، الجزائر، د ط، 2009.

12) انيسة بركات درار: نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1985.

13) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 2، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني، 1982.

14) الركيبي، عبد الله، القصة الجزائرية القصيرة، الجزائر، م.و.ك، ط.1، 1983.

15) الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير صراع اللغة والهوية، نوال بن صالح (مجلة المخبِّر)، العدد السابع 2011، جامعة محمد خيضر بسكرة.

16) سعاد خضر: الأدب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية، بيروت، 1967.

17) سعاد محمد خضر: الادب الجزائري المعاصر، المكتبة العصرية صيدا، بيروت، د. ت،

18) سعدي بزيان: جرائم فرنسا في الجزائر من الجنرال (بوجوا) الجنرال او سأريس، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005.

19) سعيد علوس: الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي، ط 2، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1981،.

20) سلوم، صغير؛ رحمان عبد المعطي حجازي، فاطمة، يصرح للشروق: في الشروق الثقافية أسبوعية (الجزائر)، مؤسسة الشروق للإعلان والنشر، أفريل 1994، ع.40، من 12.

21) عامر رخيلة: 8 ماي 1945 المنعطف الحاسم في مسار الحركة الوطنية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

22) عايدة اديب بامية: تطور الادب القصصي الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعة، 1982 .

23) عايدة بامية أديب، تطور الأدب القصص ي في الجزائر 1925 - 1967، تر: محمد صقر، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، د. ط. 1998.

24) عبد المجيد حنون: صورة الفرنسي في الرواية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986.

25) العربي الزبيري: تاريخ الجزائر المعاصر، ج 1، منشورات اتحاد الكتاب العربي، 1999.

26) عز الدين المناصرة: الهوية والتعددية اللغوية قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن، ط 1 دار مجدولاي للنشر والتوزيع عمان الأردن، 2004.

27) عز الدين المناصرة: الهوية والتعددية اللغوية قراءات في ضوء النقد الثقافي المقارن، ط 1 دار مجدولاي للنشر والتوزيع عمان الأردن، 2004.

28) الغالي غربي: فرنسا والثورة الجزائرية 1954 – 1958، دراسة في السياسات والممارسات، دار غرناطة (د. ت. أ، د. ب. ت) .

29) كفافي، محمد عبد السلام، في الأدب المقارن دراسات في نظرية الأدب والشعر القصصي، بيروت، دار النهضة العربية، ط.1، 1982.

30) مالك حداد، الانطباع الأخير، ت: السّعيد بوطاجين، الجزائر، منشورات الاختلاف، 1989.

31) محمد الطمار: تاريخ الادب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1998.

32) محمد العربي الزبيري: المثقفون الجزائريون والثورة، ط 2، دار الحكمة، الجزائر، .1995

33) محمد حربي: جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، تر: كميل قيصر داغر: ط،1 مؤسسات الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1983 .

34) محمد حربي: جبهة التحرير الوطني الأسطورة والواقع، تر: كميل قيصر داغر: ط 1، مؤسسات الأبحاث العربية، بيروت، لبنان، 1983.

35) محمد طمار، تاريخ الأدب الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون الجزائر، د ط، 2006.

36) محمود قاسم، الآدب العربي المكتوب باللغة الفرنسيّة، الجيزة، مصر، وكالة ناشرون د.ت، .

37) محمود قاسم، الآدب العربي المكتوب باللغة الفرنسيّة، الجيزة، مصر، وكالة ناشرون د.ت،

38) مرتاض، عبد الملك، نهضة الأدب العربي في الجزائر (1925-1954)، الجزائر، ش.و.ن.ت، ط.2، 1983.

39) مصطفي طلاس: الثورة الجزائرية، دار الشورى، بيروت، 1982، ص 159.

40) نجيب الحصادي، جدليّة الأنا والآخر، القاهرة، مصر، الدّار الدّوليّة للنشر والتّوزيع 1997.

41) نعمان، أحمد، التعريب بين المبدأ والتطبيق، الجزائر، ش.و.ن.ت، ط.1، 1981 .

42) نوال بن صالح: الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية وثورة التحرير صراع اللغة والهوية، مجلة المخبر ع 7 ، 2011.

43) نوال بن صالح، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير صراع اللغة والهوية، د. ط.

44) نور سليمان: الأدب الجزائري بين الرفض والتحرر، دار العلم للملايين، بيروت، 1981.

45) الهوية الوطنية، أحمد بن نعمان، ص 29، وينظر، مصير وحدة الجزائر بين أمانة الشهداء وخيانة الخُفراء، أحمد بن نعمان .

46) وسيني، الأعرج، إتجاهات الرواية العربية في الجزائر، ط.1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1986.

47) وليد عثماني: شعرية الفضاء وغواية الصحراء في الرواية الجزائرية، مجلة المخبر أبحاث في اللغة والادب الجزائري، ع 10، جامعة بسكرة الجزائر، 2014.

48) ويلك، رينيه؛ وارين، اوستن، نظرية الأدب: ترجمة، محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط.2، 1981.

ثانيا : المذكرات

1) بشار سعيد: سيمياء الانتماء في رواية الانطباع الأخير مالك حداد، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، كلية الادب والعلوم الإنسانية، جامعة مولود معمري، تيزي وزو.

2) جبور ام الخير: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية دراسة سوسيو نقدية، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في النقد الادب، جامعة وهرن، 2011/2010.

3) حبيب فاطمة الزهراء: ترجمة العناصر الثقافية في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، رواية بماذا تحلم الذئاب لياسمينة خضرا دراسة تطبيقية، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، الترجمة، جامعة احمد بن بلة، وهران، 2015، 2016.

ثالثا :المجلات

1) خميسة مدورة: مشروع لوم فيوليت (صالحات ضائعة بين تماطل حكومة الجبهة الشعبية وسلطة اللوبي الجزائرية) 1936-1938 مجلة دورية دولية محكمة، ع،07 الجزائر .

2) حكيم مرزقي: كتب لا تموت سأهبك غزالة صرخة وجع للذين نكتب لهم ويجهلون وجودنا، مجلة العرب، ع 1196، تونس، 2021 / 02 / 06 .

3) عبد الباسط هويدي: المنظومة التربوية وفكرة الإنتماء الاجتماعي، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع،26 جامعة الشهيد حمة لخضر الوادي- الجزائر- ،2016 .

4)

المراجع بالأجنبية:

DEJEUX, J Situation de la littératures Maghrébine de langue Française, Alger, Ed. OPU, 1982, .

ملخص الدراسة:

تتحدّث الرّواية عن فرد جزائري اسمه سعيد يعمل مهندسا معماريا وقع في حب فتاة فرنسيّة اسمها لوسيا حاولت جذبه إلى عالمها الفرنس ي فلم تستطع ذلك، وعندما قرّرت العودة إلى بلدها ماتت برصاصة طائشة وهي في طريقها إلى المطار تاركة سعيدا وراءها حزينا جدا، حزينًا على فراقها الأبدي من جهة أولى، وحزينًا من جهة أخرى، على الحالة التي يعيشها بين التردد والخوف من اتخاذ قرار حاسم بترك الجسر بين الأنا المستعمر والآخر المستعمر مقاما أو أنه يتوجب عليه هدمه، وتوصّل في الأخير إلى أنّ هذا مآله الزوال من خلال الثورة التي أبت إلا أن يكون واحد من شهدائها الذين التّحقوا بالرّكب وإن كان في وقت متأخر جدا.

وتكمن أهمية هذه الدراسة أنّ مكتبة الأدب الجزائري وتنوع دراستها، خاصة فيما يتعلق بالرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية. هذا المجال الأدبي لا يقتصر فقط على الأبعاد الفنية والأدبية للنصوص، بل يتعمق في استكشاف هوية الكتاب وتعايشهم مع الواقع التاريخي والسياسي الذي شكّل الخلفية لكتاباتهم.

الكلمات المفتاحية : رواية الانـطبـاع،الـهوية ،الثـورة الجـزائرية

Résumé:

Le roman parle d'un individu algérien nommé Saïd qui travaille comme architecte qui est tombé amoureux d'une fille française nommée Lucia qui a essayé de l'attirer dans son monde français, mais elle n'a pas pu, et quand elle a décidé de retourner dans son pays, elle est morte d'une balle perdue sur le chemin de l'aéroport, laissant Saeed derrière elle très triste, triste pour sa séparation éternelle d'une part, et triste d'autre part, pour la situation qu'il vit entre l'hésitation et la peur de prendre une décision décisive pour quitter le pont entre l'ego colonisé et l'autre colonisé. Il dut le démolir, et finit par conclure que celui-ci était destiné à disparaître par la révolution, qui refusa d'être l'un de ses martyrs qui rejoignit les rangs, bien que très tard.

L'importance de cette étude réside dans la bibliothèque de la littérature algérienne et la diversité de son étude, notamment en ce qui concerne le roman algérien écrit en français. Ce champ littéraire ne se limite pas aux dimensions artistiques et littéraires des textes, mais explore également l'identité des écrivains et leur coexistence avec la réalité historique et politique qui a constitué l'arrière-plan de leurs écrits.

Mots-clés : Impression roman, identité, révolution algérienne